منهاج المؤمن

الله سبحانه وتعالى نظم بالمنهج حركة الحياة في الكون، لماذا؟ لأن حركة الحياة هي مقصود كل إنسان سواء كان مؤمناً أو كافرا، فكل منا يريد أن يتحرك في الحياة ويحصل على رزقه وقوته، وعلى ما يستطيع الحصول عليه مما يعينه على حياته، لذلك كان المؤمن متحركاً في الحياة، و الكافر متحركاً في الحياة.

ولكن الله سبحانه وتعالى رسم منهاجاً للإنسان المؤمن، يتحرك فيه في حياته، وكان فارقاً بين تحرك الكافر وتحرك المؤمن.

الإنسان المؤمن يتحرك في الحياة وفقاً لمنهج الله سبحانه وتعالى، وهو لا يهتم في سبيل ذلك بضرر دنيوى أو ما يقال عنه بالضرر الدنيوى، فإذا وجد مالاً حراماً يستطيع أن يأخذه امتنع عن ذلك.. وإذا وجد شيئاً يستطيع أن يستولى عليه بالباطل رفض أن يفعل، وإذا استطاع أن يعتدى على حق ضعيف تراجع ولم يقدم، كل هذه تعتبر عند أهل الدنيا كسباً وغنائم، ولكنها بالنسبة للإنسان المؤمن خسارة كبيرة، لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه عليها في الآخرة.. وأن الثواب الذى قد يحصل عليه في الدنيا محدود جدا، ولكن ثواب الآخرة بلا حدود، ومن أجل هذا كان المؤمن يسير في حركة الحياة على أساس الحق، وعلى أساس أن يأمن كل إنسان على حقه، بينما الكافر يسير في الحياة على أساس النفع العاجل، إنه يريد كل ما تعطيه الحياة من خير ظاهر، حتى لو كان هذا النفع العاجل سيؤدى به إلى الهلاك والدمار، فتجده يقدم على سرقة مال غيره، وربما خاطر بحياته من أجل ذلك، وهو في الدنيا لا تحكم حركته حدود ولا قيود، فإذا وجد من هو أضعف منه سلب ماله، وهو ينطلق في حركة الحياة بأخذ من عرق سواه والذى يفسد الحياة وحركتها على الأرض هو أن يوجد أحياء دماؤهم من عرق سواهم، وما يزيدها فسادا ألا يكون الإنسان آمنا على نفسه وماله، في هذه الحالة تضيع حركة الحياة في الكون ويصبح المجتمع أشبه بالغابة التى تعيش على مبدأ السلب والنهب، وسفك الدماء وأخذ حقوق الآخرين، وحينئذ لا يمكن أن تكون الدنيا أمينة ولا مأمونة بالنسبة لأى إنسان، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحافظ على حقوق الضعيف قبل القوى، وأن نساعد من لا ناصر له، فإذا فعلنا ذلك صلح المجتمع كله.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم

حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١]. أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم.

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ، ولا درهمٌ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخِذَ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٢]. أخرجه البخارى فى كتاب المظالم باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يُبين مظلمته.

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقْضى ما عليه أخذ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه ثم طرح فى النار»[٣]. أخرجه مسلم فى كتاب البر باب تحريم الظلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) روى البخارى شطره الأول [٢٤٤٧] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه، ومسلم [٢٥٧٨/ ٥٦] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما واللفظ له.

(٢) رواه البخارى [٦٥٣٤] بلفظ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه».

(٣) رواه مسلم [٢٥٨١/ ٥٩]، والترمذى [٢٤١٨].

منهج الله واحد

لقد كانت قضية المنهج منذ خلق آدم حتى الآن قضية واحدة، هى قضية الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد، وكان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل، كل رسول يأتى يؤمن بمن قبله ويشدد على أمته أن ينصروا الرسول المقبل، لماذا؟ لأن رسالة السماء للإنسان أو بنى آدم فى جوهرها واحدة، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ ميثاقاً على الأنبياء، وكان الميثاق أن كل رسول يأتى فى عصر رسول آخر يؤمن به، كما حدث بالنسبة لإبراهيم ولوط مثلاً، فقد أرسلا فى عصر واحد، هذا يعالج داء، وهذا يعالج داء آخر، وكان كل منهما مؤمناً بالآخر، حتى أن إبراهيم عليه السلام جادل الملائكة حينما جاءوا يهلكون قوم لوط، جادلهم فى أمر لوط، فقالت له الملائكة نحن أعلم بمن فيها، ذلك أنهم يتلقون أوامرهم من الله سبحانه وتعالى، فهم بذلك أعلم.

إذن . . فكل رسول جاء فى عصر رسول آخر كان يؤمن به، وإن لم يكن فى عصره كان يوصى أمته أن ينصروا الرسول المقبل ويطيعوه، وكان أفراد أى أمة شهداء على أنفسهم، ونبى كل أمة شهيد عليها، والله شاهد وشهيد على الجميع (١).

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يحتفظ بانسجام تام فى الدعوة إلى منهجه منذ أول الخلق حتى نهايته، فلا يتعصب قوم لملتهم أو لنبيهم لأنهم جميعاً يبلغون عن إله واحد منهجاً واحدا، وبذلك يكون موكب الرسالات موكباً متلاحماً متكاملا متعاضدا، وبذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أنه لا حجة لنبى ولا لتابع نبى أن يصادم دعوة الرسول الذى يأتى بعده ما دام مصدقا لما بين يديه ومزيدا عليه، وبذلك يزداد موكب الإيمان ولا ينقص، فلا يأتى مؤمن يصادم مؤمناً آخر برسالة سماء، بل لابد أن يقف المؤمنون جميعاً متصادمين مع

---

(١) روى ابن جرير [٧٥٤٦] عن السدي: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. قال: إن النبيين يأتون يوم القيامة، منهم من أسلم معه من قومه الواحد والاثنان والعشرة وأقل وأكثر من ذلك، حتى يؤتى بقوم لوط صلى الله عليه وسلم لم يؤمن معه إلا ابنتاه، فيقال لهم: هل بلغتم ما أرسلتم به؟ فيقولون: نعم، فيقال: من يشهد؟ فيقولون أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل أودعوا عندكم شهادة، فبم تشهدون؟ فيقولون: ربنا نشهد أنهم قد بلغوا كما شهدوا في الدنيا بالتبليغ! فيقال: من يشهد على ذلك؟ فيقولون: محمد صلى الله عليه وسلم. فيدعى محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهد أن أمته قد صدقوا، وأن الرسل قد بلغوا. فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

من لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى، ولكن ماذا يحدث إذا تولى بعض الناس الذين آمنوا برسول سبق عندما جاءهم رسول جديد مصدقاً لما معهم، ومبيناً لهم بعض الذى اختلفوا فيه، إن الذى يولى الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله سبحانه وتعالى لأنه حارب موكب الإيمان وابتعد عن اليقين، لذلك فكل من أعرض وأعطى ظهره للنبى الجديد يقول الله تعالى عنهم: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]، والفسق هو الخروج عن منهج الله سبحانه وتعالى.

هكذا أوجب الله علينا أن نأخذ الكمال الإيمانى من مواكب الرسل لأنه ما من رسول أتى وهاجم منهج الرسول الذى قبله أو سفهه، أو حاول أن ينكره، بل كل رسول جاء مصدقاً بمن قبله ومبشرا بمن بعده، فمن يأتى بعد ذلك فيقول أنا أقبل هذا ولا أقبل ذاك فإنما هو فى الحقيقة خارج عن منهج الله، لماذا؟ لأن الرسالات فى جوهرها واحد، ومصدرها واحد، فلا يعقل أن تأتينى رسالة من المصدر نفسه فأرفضها وأقول إننى لا أؤمن بها، مع أن الرسول الذى جاء مبلغاً عن الله بمعجزات من الله يصدق رسالته، بمنهج عن الله يصحح ما قد يكون قد حرف.

ولكن ما الذى يحدث؟

فى الحقيقة إن رفض الإيمان بالرسول الجديد تكون له أسباب. وهذه الأسباب هى التى تدفع الذين اعتنقوا منهج الرسول السابق من تصديق الرسول الجديد، والأسباب هنا واضحة وظاهرة، وهى أنه قد حدث تحريف فى منهج الله لصالح البشر، وأن عددا من الناس القائمين على المنهج وعلى حفظه قد حرفوا فيه لاستفادة البشرية، ليصبحوا هم المستفيدين، ووضعوا فيه مالم يبلغه الله، وما لم يقله رسله، ثم نسبوه لله سبحانه وتعالى هذا التحريف هو الذى يمنعهم من اتباع الرسول الجديد، لأن الرسول قد أتى بمنهج حق يجردهم من ميزات الدنيا التى وضعوها لأنفسهم واستباحوها ونسبوها ظلماً وعدواناً إلى الله سبحانه وتعالى.

وفى هؤلاء يقول الله، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

وهكذا تقف أمور الدنيا ومغانمها وما تعطيه حائلاً بين الناس وبين تصديق الرسول الجديد، فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء الناس بقوا على إيمانهم، أم أنهم خرجوا عن منهج الله.

الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً يحيط بالإنسان فى كل تصرف به؛ ولذلك لا تجد تصرفا بشريا لا يخضع لمنهج الله؟

وقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، دليل على ذلك، ولقد أراد أحد الناس أن يتحدى الشيخ محمد عبده فى هذه النقطة فجاء إليه وقال له، إن

الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾، فرد الشيخ محمد عبده: نعم فالقرآن لم يفرط في شيء، وهنا قال السائل: أخرج لي من القرآن ما يبين كم رغيفا يصنع من أردب القمح.. وقام الشيخ محمد عبده إلى أحد الخبازين وسأله كم رغيفا يصنع أردب القمح، فرد الخباز كذا رغيفا، فقال السائل مندهشا: وهل هذا من القرآن؟ فرد الشيخ محمد عبده: نعم من القرآن.

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

وحتى أطيع القرآن وأمضى على المنهج سألت أهل الذكر فأفتونى.

وهكذا لو فكرنا قليلاً لوجدنا أن منهج الله يحيط بحياة الإنسان إحاطة كاملة، وما دمنا جميعاً نعلم أن لهذا الكون إلهاً واحدا، ونؤمن بذلك، وما دمنا جميعاً نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله، كل رسول مصدق لمن قبله ومبشر بمن بعده، فلا نأتى ونقول إننا لا نؤمن بمنهج الله وخاتم رسله، إلا أن يكون غرض شخصى، منهج يوافق الهوى، منهج هو من صنع الناس للناس، والعجيب أن الإنسان فى بعض الأحيان يفضل أن يتبع منهجاً وضعه البشر، من أن يتبع رسالة السماء.

وهنا لابد من تفسير، إن الإنسان لا يحب أن يتبع مساويا، بل لابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه، فما الذى يجعل إنساناً يتبع منهجاً بشريا من مساو له، والجواب على ذلك بسيط.. حين تتلاقى المصالح والأهواء ويحلل الحرام ويباح كل منكر، تجد الإنسان يتبع منهج الإنسان، وهذه هى الحقيقة التى يجب أن نعيها حينما نسمع عن تشريع البشر للبشر وحينما نسمع أن بعض الناس وبعض الشعوب والأمم تترك منهج الله الذى لا هوى فيه والذى يعطى لكل إنسان حقه، والذى هو أمن وأمان للجميع، تترك هذا التشريع وتتبع تشريعاً بشريا، حينئذ نقول هوى النفس دخل هنا، وأصبح التشريع يوضع لصالح من يحكم، فإذا تغير الحاكم تغير التشريع، وهكذا يظل هذا التشريع يتبدل ويتغير حتى يصل إلى مجموعة من المتناقضات التى هى أساساً هوى النفس، الذى قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وإذا نظرنا لأى تشريع بشرى، فلابد أن ننظر أولاً إذا كان هذا التشريع يحقق ميزة لأولئك الذين وضعوه، حينئذ نعرف أين هو هوى النفس وحينئذ نعلم من الذى يشرع، وحينئذ تبدو لنا الأسباب التى ابتعد من أجلها بعض الناس عن منهج الله، وجعلوا الخلق مقابلاً للخالق، إنه هوى النفس الذى يحكم مناهج البشر.

الله سبحانه وتعالى لم يترك خلقه إلا بعد أن بين لهم كل شىء، وبين لهم أنه خلق هذا الكون من أجلهم، كيف أخضع كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد للإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الحجة البالغة فخلق أشياء لا نقدر عليها ثم سخرها لنا فالشمس والقمر والبحار والكون كله فوق قدرة الإنسان، والسؤال: هل أنت سخرت هذا

كله ليكون فى خدمتك، سخرته بقدرتك وقوتك وعلمك، الجواب طبعاً لا، فإذا كان الجواب كذلك، فما هى القوة التى سخرت لك مالا تقدر عليه، فإذا كان الله تعالى هو الذى سخر، وهو الذى وضع المنهج ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ولكن الهوى النفسى الذى سيطر يحاول أن يتخذ صورا معينة، مثل تطور الكون أو عصر العلم، أو عصر الاكتشافات العلمية، إلى آخر هذا الكلام، وهذه كلها مبررات للخروج من منهج الله إلى منهج هوى النفس البشرية، فمنهج الله لا يقيد إنساناً من أن يبحث فى الأرض وأن يستكشف، بل إنه يحثه على ذلك فى حدود المنهج، فلا يأتى إنسان كشف الله له سرا من أسرار الحياة يتخذ من هذه النعمة طريقاً إلى محاربة الله فى الأرض ممجدا فيما كشف ناسباً الفضل لنفسه متناسياً نعمة الله عليه، نقول له: هل هذا الشيء الذى اكتشفه كان موجودا فى الكون أم لم يكن موجودا، هل أضفت شيئا إلى الدنيا، ويكون الجواب لا؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يضيف إلى الدنيا شيئا، ولكن الإنسان حين يكشف خاصية جديدة وضعها الله فى الأرض وأخفاها إلى أن جاء وقت ميلادها، إذن فهو لم يضف شيئاً إلى الكون، ثم نأتى بعد ذلك إليه لنسأله أنت تريد أن نتبع منهجك ونترك منهج الله بدعوى أنك الأحدث والأقرب إلى العقل والفهم، أو الأقرب إلى المعجزة العلمية كما يدعون، ونحن نريد أن نسألك هل ما اكتشفه من علم يساوى عظمة خلق الشمس التى تشرق منذ ملايين السنين على الكون، هل هذا الذى اكتشفه يساوى عظمة هذا الكون كله، فإذا كان جوابك نعم، فلك الحق أن تقول انتهى عصر الإيمان وبدأ عصر العلم، وإذا كان جوابك لا، فكأنك تحتقر عقولنا لأنك تقدم شيئاً تافهاً، وتطالبنا أن نترك من أجله عبادة الله بكل العظمة والقدرة الظاهرة أمامنا.

لو أنك خلقت كونا لا أقول أبدع من الكون ولا أقول مماثلاً لكون الله، ولكنى أقول أصغر من كون الله، لكان لك الحق أن تدعى، ولكنك حتى الآن عاجز عن أن تخلق ذبابة، ومع ذلك تريد أن تخرجنى من عبادة ربى بدعوى العلم، أى علم هذا الذى يدعو للخروج عن طاعة الخالق واتباع هوى النفس فى أشياء لم توفر أساسيات للبشرية وإن كانت قد أعطتها شيئا من الرفاهية فقد سلبتها الأمن والأمان والحياة الطيبة وكل شيء جميل فى هذا الكون، وملأت الدنيا بالتلوث وشبح الحرب والقتل والسلب والنهب.

على أنه لابد من إيضاح لهذه النقطة، تلك المخترعات البشرية متى تنشط وتزدهر، إنها تنشط فى أوقات الحروب، فى أوقات القتال والقتل عندما تشتعل الحرب ويريد كل إنسان أن يسيطر على الآخر ويقهره ويذله، ويريد شعب أن يسيطر على باقى الشعوب ويذلها ويسلبها خيراتها، حينئذ يبدأ الإنفاق بسخاء شديد مع البحث عن أدوات وأسرار مدمرة فى الكون، وإذا رجعت إلى تاريخ معظم المخترعات تجد أنها أساسا كانت للشر والقتل، ثم بعد ذلك عندما انتهت الحرب بدأ تطويرها للأغراض السلمية، القنبلة الذرية

والقنبلة الهيدروجينية وحتى ما يسمونه بغزو الفضاء ليس لخدمة الإنسان ورفاهيته، ولكن ليسيطروا على البشر ويقهروهم. فإذا استخدم بعد ذلك أى اختراع من هذه الاختراعات لخدمة الإنسانية، فلا يجعلنا ذلك ننسى الهدف الأساسى الذى تم من أجله هذا الاختراع ونهلل ونكبر.

والله سبحانه وتعالى خلق فى الكون أساسياته أو مقومات الحياة، فخلق لنا الماء الذى نشربه، ثم جاء العلم ليجعل الإنسان بدلاً من أن يشرب من البئر أو الترعة يشرب ماء مثلجاً فى منزله، وخلق الله الإنسان صالحاً للحركة يستطيع أن ينتقل من مكان لآخر، وخلق له الدواب التى تعينه على ذلك، وجاء العلم المخلوق من الله وكشف الإنسان نوعاً من الرفاهية يستطيع أن ينتقل بها، وخلق الله سبحانه وتعالى للإنسان الطعام، وجاء العلم المخلوق من الله ليدخل بعض التحسينات على إنتاج الطعام فيجعله أكثر غزارة أو أحسن طعما، وهكذا كل ما فعله الإنسان كان إضافة ولم يكن أصلاً فى شىء، حتى اللبن الذى تحدى الله سبحانه وتعالى به البشر، وجعله آية من آياته اختص بها نفسه، عجز العلم حتى الآن عن أن يوفر كوب لبن واحداً بطريقة صناعية، وظلت الأبقار هى الأساس تسقى الدنيا كلها لبناً كل يوم بوفرة كبيرة، وعلماء العصر بكل قوتهم عاجزون عن أن يعطونا كوباً واحدا من اللبن، ثم بعد ذلك لا يخجل إنسان من أن يقول: لقد بدأ عصر العلم وانتهى عصر الإيمان، ويدعو لعدم الإيمان بالله.

العلم لم يخلق أساسيات الحياة

إذن.. العلم لم يخلق أساسيات الحياة - ولا هو أعطى شيئاً لم يكن موجودا ولكنه وفر الرفاهية فى الكون، فما الذى يدعونا لأن نترك الله ونقول إن عصر العلم قد بدأ؟

على أننا إذا أردنا نظرة منصفة، فلابد أن ننظر إلى عالم اليوم وما فيه من شرور وحروب وقتل ونهب للأموال، فكل هذا الذى نراه، ونسأل أنفسنا، هل ما وفره العلم يساوى كل هذا الشقاء، هل يساوى سلب حرية الإنسان وأمان الإنسان وإحساس الناس، فى أية لحظة يمكن أن تأتى حروب نووية فتفنى العالم كله، إحساس الملايين من البشر بعدم الأمن والأمان هل يساوى هذا فى حياة الناس الشقاء الذى يعيشونه الآن، إننا نجد أوروبا الآن فى موجة عارمة اسمها العودة إلى الطبيعة.. وهذه الموجة انتشرت بين الشباب تطالب بأن يعود الإنسان إلى الطبيعة التى خلقها الله، وأن يدمر الناس القنابل وغيرها من أسلحة الدمار، ويتخلصوا من كل ما يلوث الجو ويفسده.. ويعودوا إلى الطبيعة السمحة بكل ما تأتيه من خير بلا شرور، ومن حياة بلا آلام، ومن راحة بال بلا قلق.. ومن كل شىء حلو، ولو أننا نحن الذين طالبنا بذلك لقالوا متخلفين، ولكنها أوروبا التى يعتبرها هؤلاء الناس أساس الحضارة و المدنية تطالب بالعودة إلى الطبيعة، ولعل فى هذا ردا وردا علميا على ضيق النفس البشرية مما سببته وتسببه المدنية من آلام ومشاكل.

ما معنى هذا؟ هل معناه أن نترك الدنيا لغيرنا، أبداً، ولكن معناه أن نسير فى كل شىء بمنهج الله سبحانه وتعالى، فإذا علمنا عملنا بإخلاص، وإذا أخذنا لم نأخذ حقوق أحد، ولم ننسب فضلاً لغير أهله، ما دمنا نتبع المنهج فلنأخذ الدنيا كلها ونبحث فى العلم كيفما نشاء، ولكن دونما خروج عن المنهج، حينئذ يحدث انسجام بيننا وبين الكون، ونحس بالسعادة فى كل خطوة نخطوها.

ولكن الذى يحدث أننا نريد أن نترك منهج الله بهذه الأشياء الظاهرة التى تبهر ضعاف النفوس، والمفروض أن كل كشف علمى فى الأرض يزيدنا التصاقاً بالله سبحانه وتعالى، فهو إظهار لقدرة الله فى الكون وإبداعه فى الخلق.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

أى الذين فتح الله لهم باباً من أبواب العلم كان يجب أن يكونوا أكثر الناس خشية لله؛ لأن الله أطلعهم على آية من آياته وأفهمها عقولهم، ولذلك كان يجب أن يكون الشكر على قدر العطاء، ولكن بعض العقول تغتر وتعتقد أنها هى التى فعلت، ولا تستطيع

أن تفسر لنا كيف أنه فى بعض الأحيان تعجز هذه العقول عن أن تحرك أصبعاً من أصابع صاحبها عندما يداهمه المرض ويصبح عاجزا عن الحركة، ولا أن تقول لنا كيف أنها تقف عاجزة لا تستطيع أن تمنح نفسها الحياة، ولا تقدر أن تعطى لنفسها الصحة.

على أن المشاكل التى تنشأ فى كثير من الأحيان من اكتشافات علمية يهلل لها البشر، تجعل الشك فى القيمة المطلقة لهذه الاكتشافات موجودا فى كل لحظة، فهؤلاء الذين قدموا المبيدات الحشرية هم الذين حرموها، وكثير من الأدوية التى قيل إنها تفعل المعجزات وتشفى كثيرا من الأمراض حرم استعمالها تماماً بعد سنوات بسيطة ؛ لأنه ثبت أن لها أضرارا تفوق منافعها مئات المرات، والسجل العلمى حافل بمثل هذه الأشياء.

على أن الإنسان يقتله جشعه، فهو يملك المال الذى يكفيه طوال حياته ويزيد، ولكنه يطلب مزيدا من المال ويشقى نفسه فى الحصول عليه، وكل مخلوق لله يأكل على قدر حاجته، الطير تلتهم من الحبوب ما يكفيها فقط وتترك الباقى، وأنت إذا وضعت كمية كبيرة من الغذاء أمام أى حيوان فإنه لا يأكل منه إلا حاجته ويترك الباقى، أما الإنسان فهو الوحيد الذى يأكل أكثر من حاجته، ويشرب أكثر من حاجته، ويريد أن يملك أكثر من حاجته، وهذا الجشع البشرى هو أساس الشقاء الذى تعانيه البشرية.. وفى كل ما يزيد عن الحاجة من طعام أو شراب أو مال يكنز بلا حساب، نهى عنه منهج الله.

إسلام الكون كله لله تعالى

الله سبحانه وتعالى في كونه أشياء أسلمت له سبحانه وتعالى ورفضت الاختيار رفضت أن تكون مختارة في طاعة الله.

والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إذن.. هذا الكون كله قد أسلم ورفض أن يكون مختارا في أن يؤمن أو لا يؤمن، أسلم طوعا، بل اختار إيمانا له إرادة في الطاعة من دون أن تكون له إرادة في المعصية، أما الإنسان فقد قبل أن يحمل الأمانة وأن يأتي الله باختياره عن حب، وما دام يستطيع أن يأتي فهو يستطيع أيضاً ألا يأتي، وما دام قد أعطى حرية الإيمان وحرية أن يؤمن، فقد أعطى أيضاً حرية ألا يؤمن، ما هي الأمانة، هي شيء ائتمنك الله عليه، فإذا أردت أن تبسطها ونضرب مثلا - ولله المثل الأعلى - أقول هب أنني جئت إليك وأودعتك شيئا وقلت هذا أمانة عندك سآخذها عندما أطلبها، أنت في هذه الحالة وفي سلوكك شيئان، إما أن تأخذ هذا المال الذي أودعته، وتبعثره فيما لا ينفع ولا تحافظ عليه ولا تراعى الأمانة حق رعايتها، وفي هذه الحالة يأتي وقت السداد فلا تجد عندك شيئاً، وإما أن تحافظ عليها وتنميها وتزيدها، ويأتي السداد فتجد ما تسد به ويفيض.

والله سبحانه وتعالى حين أعطانا حرية الاختيار، وأعطانا كل ما في الكون وسخره لنا، كان هذا من أجل الإنسان، ثم أعطانا الأمانة، والعقل وحرية الاختيار وأشهدنا على نفسه فقال: أنا ربكم وهذه معجزاتي، الأرض و السماء والجبال، و الشمس والقمر والنجوم، وكل ما في الكون مسخر لكم، وخلقته من أجلكم، وأنا أقول لكم إنني أنا الخالق ولا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق، إذا استخدمتم عقولكم رأيتموني في كل آية في الأرض، وفزعتم إلي في كل ما تخافون منه، فلقد وضعت لكم منهج الحياة الذي يسعدكم في الدنيا والآخرة، فمن أدي أمانته نحوي في رحلة الدنيا القصيرة، متعته في الدنيا والآخرة ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝ ﴾ [فصلت]، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

بعض الناس حمل الأمانة وراح يضيعها فيما لا ينفع وفيما نهى الله عنه، معتقدا أن الدنيا دائمة، وأن الحياة بلا نهاية، كافرا بلقاء الله، وبعض الناس آمن وحفظ

الأمانة، حتى إذا جاء يوم القيامة، قال يا رب أعطيتنى الأمانة فحفظتها وعملت بها فجازيتنى أحسن الجزاء.

على أن بعض الناس، يعتقد أن من الإسلام أن تجعل من لم يؤمن طوعاً يؤمن كرهاً. فإذا كان هناك إنسان لا يصلى فمن حقك أن تكرهه على الصلاة ولو اضطررت أن تجلده، وإن كان هناك إنسان لا يؤمن، فبالسيف يؤمن، نقول له، ليس هذا هو الإسلام، ولا يمكن الوصول للإسلام بالكره أو بالإكراه، ولم يسلم أحد كرهاً، بل كل الذين أسلموا أتوا باختيارهم طائعين، ولا يقبل قول إن الإسلام انتشر بالسيف، ذلك أن السيف رفع فى الإسلام لحماية حرية الإنسان فى أن يؤمن أو لا يؤمن، ولمنع الإكراه، فلقد كانت هناك قوى متسلطة على الناس بالسيف، تكرههم على عبادة الله، وترغمهم على عقائد زائفة، بل إن هناك من كانوا مكرهين على عبادة البشر، فكان الحاكم ينصب نفسه إلهاً، من عبده فله الأمان، ومن لم يعبده يقتل.. وهنا قال الإسلام: لا.. قفوا عند حدكم، ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون، دعونا نعرض عليهم الإسلام، واعرضوا أنتم عليهم ما أردتم، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وكانت سماحة الإسلام، وقوة الإسلام وحجة الإسلام هى الدافع لأن يعتنقه الملايين؛ لأنهم رأوا فيه دين الحق.

ولو أن ما يقوله بعض الناس من أن الإسلام لا ينتشر إلا بالسيف صحيح، فأين هو السيف الذى يجعل الألوف يعتنقون الإسلام كل يوم، وأين هو السيف الذى يجعل الملايين يدينون بدين الإسلام، بل لو كان هذا من أساس الدين لقام المسلمون بقتل كل إنسان غير مسلم فى الدول التى فتحوها، وكان فى هذه الدول غير مسلمين، نحن ما فرضنا ديناً على إنسان غير مسلم فى بلاد يحكمها الإسلام، بل تركناه على فكره، له إن شاء أن يسلم، وله إن شاء أن يبقى على دينه، ولعل وجود غير المسلمين فى بلاد فتحها الإسلام فى بداية الدعوة الإسلامية، بل وحماية هؤلاء الناس غير المسلمين وتوفير الأمن والأمان وحرية العبادة لهم، دليل على أنه لا إكراه فى الدين، وأن الإسلام يؤمن بحرية العقيدة، وأن الله سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يأتوا إليه طائعين لا مكرهين.

ولكن كلنا نسلم لله كرها أو مكرهين، كل هذا الكون يسلم لله كرهاً وبلا اختيار، أنت ترى أن هناك تناقضاً فى هذا الكلام، ولكن فى الحقيقة ليس هناك تناقض، بل هذه هى طبيعة الحياة وسنة الله، فى حياة كل فرد منا أشياء يسلم فيها باختياره، الله سبحانه وتعالى أعطاه فيها إرادة أن يسلم، فقال له افعل، وما دام الله قد قال لك افعل، ففى مقدورك ألا تفعل، وإلا لما قال الله افعل، وهناك أشياء قال الله فيها لا تفعل، ومعنى ذلك أن فى مقدورك أن تفعل، قول الله سبحانه وتعالى افعل ولا تفعل، لا يكون إلا إذا كان لك حرية الاختيار، وإلا يصبح الأمر هنا بلا معنى، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى افعل فى شىء أنت مجبر على فعله لا اختيار لك فيه، أو يقول لك لا تفعل فى شىء أنت لا تستطيع أن تفعله، حينئذ يكون الأمر فاقدا معناه، إلا إذا وجد الاختيار.

ولكن هناك أشياء في الكون، أنت مقهور أن تسلم فيها لله.. يوم ولادتك مثلاً، هل تستطيع أن تختاره وتقول سأولد يوم كذا ولا أولد يوم كذا، أبوك وأمك هل لك اختيار فيهما لتقول سأختار أبى هذا الرجل الغنى وأمى هذه السيدة الثرية، يوم وفاتك مثلاً أتستطيع أن تقول لن أموت اليوم سأموت غدا أو في العام القادم، ما يقع عليك من أمراض وأحداث هل أنت مختار فيها؟ هل تستطيع أن تقول سأمرض بهذا المرض ولن أمرض بهذا المرض، نموك مثلاً، هل تستطيع أن تقول لن أنمو وسأبقى طفلاً، أو لن أصل إلى الشيخوخة وسأظل شابا، قلبك ومعدتك، هل تستطيع أن تقول لن أجعل قلبي يدق لمدة أسبوع، أو سأوقف معدتي عن الحركة لمدة شهر، أو لا أريد للدورة الدموية أن تمشى فى جسمى عدة أسابيع، أو سأتوقف عن التنفس ساعة أو ساعتين.

كل هذا لا تستطيع أن تفعله بل أنت مكره فيه أن تسلم لله فيما يريد، فالله هو الذى يختار يوم ولادتك، ومن هو أبوك ومن هى أمك، وهو الذى يضع فيك الحياة لتنمو، فإذا أراد أن يسلب الحياة فهو الذى يسلبها، ففى هذه الأشياء كلها سواء أردت أو لم ترد أنت مسلم لله سبحانه وتعالى كرهاً، أى بدون إرادة منك، بل الله يفعل ما يريد سواء أردت أو لم ترد.

إذن.. حينما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فليس معنى ذلك أنك تكره الناس على الإسلام، ولكن معناه أن الله سبحانه وتعالى جعل فى حياة بعض مخلوقاته ومنها الإنسان والجن مثلاً مناطق للاختيار، يعطيهم فيها الحرية فى أن يختاروا، ومناطق هم مكرهون فيها، مقهورون لله لا اختيار لهم، قد يحدث لك شيء أو تمرض بمرض معين أو يقع عليك ما تكرهه، لو أن لك إرادة حرة في هذا لمنعت حدوثه، ولكنك مقهور لأمر الله فيه لا تستطيع دفع المرض عن نفسك، وما دمت تكره شيئاً لا تستطيع دفعه عن نفسك، فإنك مكره أن تسلم فيه لله سبحانه وتعالى فيما أراد، إذن فأنت فى هذه الأمور مسلم لله كرهاً، أى دونما أى اختيار منك، بينما فى أمور الدين أنت مسلم لله طوعاً أى باختيارك، فأنت تستطيع أن تصلى أو لا تصلى، وأن تزكي أو لا تزكي، وتصوم أو لا تصوم، وتحج أو لا تحج؟

وبعض الناس يجاهر بالكفر بالله ويتباهى، نقول له لو أنك فعلاً تستطيع أن تخرج من طوع الله، فأرنا كيف تتصرف فى الأمور التى أكرهك الله أن تسلم له فيها، أرنا كيف تستطيع أن تختار يوم مولدك أو يوم وفاتك، أو أن تمنع المرض عنك، أو أن تغير ما يقع عليك من أقدار أو أن توقف نمو جسدك، إلى آخر الأمور التى أعلن الله سبحانه وتعالى أنك مقهور فيها، فإذا استطعت ذلك فقد يكون لك حجة، فإذا لم تستطع ولن تستطيع، فإنك فاقد الحجة فى نفسك وفى ذاتك، فكيف تريد أن تقنعنا بما أنت عاجز عنه، لو أنك تتحكم فى قدرك كما تدعى فأرنا كيف لا تسلم لله فى يوم مولدك ويوم أن تموت وفى

الأحداث التى تقع عليك ولا تستطيع دفعها، أنت خاضع لله، مسلم له كرهاً، أى رغماً عنك.

إذن.. قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا ﴾، نأخذ ذلك لأجناس الأرض التى اختارت الإسلام لله، ونأخذ معها الإنسان المؤمن الذى أسلم لله فى كل الأمور، فهو أسلم لله فى الأمور التى له اختيار فيها وفى الأمور التى ليس له فيها اختيار، فالإنسان المؤمن أسلم قيادته لله سبحانه وتعالى فى كل أمر من أمور الدنيا، وإذا أتينا إلى قوله تعالى ﴿ وَكَرْهًا ﴾، فهذه بالنسبة للإنسان الذى يرفض أن يسلم قيادته لله فى الأمور التى له فيها اختيار، فهو يكفر بالله ويرفض أن يسلم قيادته له، حينئذ نقول له: رغم رفضك طوعاً أن تسلم قيادتك لله فيما لك فيه اختيار فإنك تسلمها لله قهرا فيما ليس لك فيه اختيار، فأنت لا تستطيع أن تدفع عن نفسك أمراً من أمور الله سبحانه وتعالى أنت تكرهه، الله يجرى عليك ما يشاء، وأنت تسلم وتذعن وأنت كاره لأنه لا اختيار لك فى أشياء كثيرة مثل ميلادك ووفاتك والأقدار التى تتم عليك.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى هو الذى يملى إرادته فى كثير من أمور حياتك التى لم يترك لك خياراً فيها، لكن علينا أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى ترك لنا الاختيار فى عدد من الأمور وأراد لنا، فلا يأتى إنسان ويكره إنساناً آخر على شىء تركه الله مختارا فيه، كأن يقتله إذا لم يسلم، أو أن يستخدم السيف لإجبار الناس على الإسلام، الحرية هنا من الله سبحانه وتعالى، أرادها للإنسان، وأراد الله ألا تطغى إرادة بشر على إرادة بشر.. وألا يكره إنسان آخر على أن يفعل شيئاً رغم إرادته، وهذه هى الرحمة، الرحمة من الله فى ألا يجعلك مقهورا لبشر مساو لك، بل يجعلك حرا فيما أراد أن تكون لك فيه حرية الاختيار.

وأنت حين تفكر فى منهج الله وفيما قاله بافعل ولا تفعل، نقول لك إذا فعلت: فما الذى يفيد الله مثلا، وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله، لا شىء، وإذا كان الأمر من الأمور له مصلحة فيه وهوى شخصى، كأن يأمرك إنسان أن تفعل شيئاً لفائدته، حينئذ يكون الفعل لمصلحة من يأمر وليس لمصلحة من يقوم به، فإذا لم يكن للآمر مصلحة فيما أمر به، فلابد أنه يريد مصلحة الفاعل نفسه، تماماً كما تأمر ابنك الصغير بأن يذاكر أو يجتهد، ولا يضيع وقته فى اللهو والعبث حتى ينجح فى الامتحان، قد يتحمل الابن شيئا من المشقة فى المذاكرة، وقد يكون أحب إلى نفسه أن ينزل ويلعب ويلهو ولا يقرأ سطراً، ولكنك مع ذلك تأمره بالمذاكرة وتكون حريصاً عليها، وتأخذ من رزقك لتأتى له بمدرس خصوصى يعينه، وقد تتحمل أنت ضنك العيش وتقترض وتعمل أكثر حتى توفر له ما يضمن له النجاح، هل الأمر هنا لمصلحة الآمر أم لمصلحة من يقوم بالفعل؟ الجواب أنه لمصلحة من يقوم بالفعل، وما دام الأمر كذلك، فإن من مصلحة الابن وحده أن يذاكر حتى إذا بلغ مبلغ الرجولة، كان رجلاً مرفوع الرأس مصون الكرامة، يحترمه الناس، وله مركز فى المجتمع.

وإذا كان اللّٰه سبحانه وتعالى لا هوى له ولا مصلحة، فإن هدفه من منهجه للخلق هو إصلاح الخلق ذاته، وأن يكون هذا الخلق منسجماً مع باقى الكون فى التسليم للّٰه تعالى.

وإذا أردنا أن نعرف معنى هذا نقرأ قول الحق: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فإذا كان من فى السماوات ومن فى الأرض أسلم للّٰه، فمطلوب منك أنت أن تنسجم مع الكون وتسلم حركتك الاختيارية فيه للّٰه سبحانه وتعالى، فكل ما فى الكون سخر وقهر أن ينفذ ما أراده اللّٰه سبحانه وتعالى، والشمس والجبال وباقى المخلوقات قالت أتينا طائعين حتى تكسب ثواب الطاعة، ولو أنها قالت لن نأتى طائعين لأتت كرهاً، ولكنها تكسب ثواب الطاعة فاختارت أن تأتى طائعة.

ثم يقول اللّٰه سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]، أى ليست المسألة أن اللّٰه سبحانه وتعالى قد خلقك مختارا ثم خرجت من كونه وشردت، لا ، أنت لم تخرج من كون اللّٰه، وإذا كنت تريد أن توهمنا أنك خرجت عن قهر اللّٰه لك، فقل لنا كيف أنك لن تعود إليه، ادفع عن نفسك الموت إن استطعت وأعط لنفسك الخلود، ولكنك لن تستطيع، فإذا كنت مقهرا فى أشياء داخل نفسك، داخل ذاتك، إذا كنت خلال فترة الاختيار وهى الحياة الدنيا خاضعاً للّٰه سبحانه وتعالى فى أمور كثيرة، فكيف بعد أن تترك هذه الحياة، إن كل من لم يسلم وجهه للّٰه فى أمور الاختيار التى أعطاها اللّٰه سبحانه وتعالى له فى الدنيا يكون فى كبرياء كاذب ؛ لأن الكبرياء الصادق كان يرفعك إلى أن تنسجم فى الأمور الاختيارية مع إرادة اللّٰه سبحانه وتعالى، وأن تسلم له قيادته الاختيارية وهذا هو أساس الإيمان.

ولذلك قال اللّٰه سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

اللّٰه تعالى رد الأمر كله منذ بدء الخليقة حتى نهايتها للإسلام والتسليم للّٰه، فهذه الأديان كلها إنما تكمل بعضها البعض ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾، هذا هو الأساس والعهد، الإيمان بمن؟ باللّٰه، ثم اقرأ النص القرآنى الكريم ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] أى: إن الديانات السابقة كلها أكملها اللّٰه سبحانه وتعالى بالإسلام ؛ ولذلك ما دام رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قد جاء ليكمل اللبنة الناقصة فى البناء الإيمانى، فهذه الرسالة إكمال للبناء الإيمانى الذى أراده اللّٰه سبحانه وتعالى، ثم انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران: ٨٤]، وتوقف عند كلمة ﴿ وَمَا أُوتِيَ ﴾ لتعرف أنهم لم يأتوا بشيء من ذاتيتهم، ثم قوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

إذن . . فليس لأى رسُول سلطة زمنية حتى يستقل بما أوحى إليه أو بما أوتى، لماذا؟ لأنه لا شيء هنا من ذاتية الرسل، ولكن كل من الله، ومن هنا لا أستطيع أنا أن أتوقف عند رسُول معين وأفرق بينه وبين باقى الرسل، وأقول سآخذ من هذا ولا آخذ من الذى بعده ؛ لأنه لو كان للرسول ذاتية لكان هذا جائزا لتقول إن فكر هذا الرسُول أنضج من الرسُول الذى بعده أو أكثر عمقاً ؛ ولكن حيث لا ذاتية لأحد فإن الأمر من الله سبحانه وتعالى، وبما أن الأمر من الله سبحانه وتعالى فإننا نأخذ من الله فيعطينا عن رسُول بعد رسُول حتى نصل إلى تمام الدين الذى هو من الله فى قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، ثم يختمها بماذا؟ ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

إذن . . البداية من الله، والنهاية إلى الله، وهى الإسلام لله سبحانه وتعالى، ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ تكون تلك هى القضية الكونية فى موقف الرسالات، وما دام الإسلام هو ذلك الانقياد إلى الله من الإنسان فيما له فيه اختيار أن يكون الكون كله بما فيه الإنسان المؤمن المسلم قيادته لله سبحانه وتعالى، يكون مسخرا لله، فلا تأتى حركة لتعاند حركة أخرى، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وسخر وهيمن، ووضع لكل إنسان فى مجال حركة الحياة قانوناً يعصمه من أن يعتدى على غيره.

وإذا نظرت إلى البشر حينما اضطروا أن يعيشوا فى مجتمعات معاً، نجد أنهم حاولوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم والكوارث فى الأرض، فإذا نظرنا إلى نظام الطيران مثلاً نجد أن هناك هيئات دولية، تحاول أن تمنع تصادم الطائرات فى الجو، ومن هنا فإن لكل طائرة مسارا وإذنا بالطيران . . فكذلك منهج الله وُضِع حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة أخرى فيه، ولذلك فى قانون التسخير، لا تصطدم حركة الوجود أبدا، الأرض لا تصطدم بالشمس، والقمر لا يصطدم بالأرض ولا بالشمس، والجبال لا تصطدم ببعضها البعض . . وهذا الكون الهائل الملىء بالكواكب والمجرات والأجرام السماوية، لا تجد فيه اصطداما يحدث، بل انسجاما غريبا ودقة ما بعدها دقة، لا تجد الشمس لا تشرق يوما فى موعدها، بل كل شىء غاية فى الانسجام.

تعال إلى ما صنعه الإنسان ويقوده باختياره، سيارة تصطدم مع سيارة وقطار يصطدم مع قطار، ودولة تصطدم مع دولة، ومخلوقات تصطدم كلها ببعضها البعض.

هذا الاصطدام فى حركة الحياة ينشأ فى الأشياء التى جعل الله سبحانه وتعالى للإنسان اختيارا فيها، أما الأشياء المسخرة للإنسان والتى ليس له اختيار فيها فإنها تسير غاية فى الدقة منذ أن خلقها الله تعالى.

وإذا كان الإنسان يضطر إلى أن يعدل قوانينه التى وضعها فى كل فترة من الفترات،

فهذا الاضطرار إنما هو ناشئ عن اصطدام حركة الحياة، فنحن لم نسمع أنه جرى تعديل على نظام الكون منذ ملايين السنين، فلا الشمس عدلت مسارها، ولا القمر وجدناه يوماً فى مكان آخر بحجة التعديل أو التصحيح، ولا الأرض غيرت مدارها، فإذا كان الأمر كذلك وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا منهج الحياة الذى ينسجم مع الكون ولا يصطدم أبدا . فلماذا تشذ أنت عن الكون كله، ولماذا يشذ بعض البشر عن منهج الله، وبدلاً من أن يأخذوا قوانين الله التى وضعها للحياة فى الأرض تجد قوانين قد وضعها مفكرون من البشر، هذا القانون رومانى وهذا القانون فرنسى إلى آخره، أفنترك تشريع الله مع مايحمله لنا من انسجام مع الكون ونتبع ما يشرعه البشر، ثم نتساءل عن سر الشقاء والتصادم وعدم الانسجام فى الكون، وفى كل فترة نعدل ونبدل ونغير، بينما الله سبحانه وتعالى أعطانا القانون الأزلى الذى يحقق لنا الحياة الطيبة.

إذا أردنا أن نعرف لماذا تتصادم حركة الحياة فى الكون، ولماذا هذا الشقاء، فعلينا أن نتذكر ما الذى حطم الانسجام بيننا وبين الكون، وأوجد هذا الشقاء.

وإذا أردنا أن نخرج من هذا الكلام كله، فلابد أن نعرف أن البداية من الله، والنهاية إلى الله، وأنه لا حل إلا التسليم لله سبحانه وتعالى.

الله سبحانه وتعالى له صفة العدل المطلق، وعدل الله لا يجعله يميز بين خلق وخلق، بل كلهم متساوون أمامه، لا تفرقة ولا تمييز، لذلك فإن من يقول: إن التقدم العلمى هو دليل إيمانى، إنما يمس صفة العدل. ذلك أن معنى هذا الكلام أن أولئك الذين سبقوا قبل حدوث هذا التقدم العلمى كان إيمانهم ناقصا ؛ لأن بعض أسس الإيمان كانت غير موجودة.

ومن هنا فإن إطلاق مثل هذه الأشياء فى عموميات، فى الحقيقة تمس قضية الإيمان بشكل مباشر، فآيات الله الدالة على خلقه، وعلى عظمته، وعلى قدرته، موجودة منذ بداية الخلق، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد فى الكون من أسراره ما ينبئ بعظمة الخالق ويدل عليها، ثم أعطى عطاء متجددا بعد ذلك لكل جيل غير الجيل الذى قبله.. هذا العطاء إنما لتعلم أن الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه لا يتخلى عنه لحظة واحدة، وأن له عطاء متجدداً لخلقه كل يوم، بل كل ساعة، حتى لا نحس نحن البشر بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ثم تركه بعد ذلك يعمل بالأسباب وحدها، بل لابد مع الأسباب من طلاقة القدرة، تكشف وتعطى وتمنح، وتذكر الناس بأن الله ينصر الضعيف على القوى والمظلوم على الظالم، حتى لا يستشرى الفساد فى الأرض، والسماء لا تتدخل إلا عندما لا تكون فئة من الخلق قائمة تجاهد فى سبيل الحق، فإذا كانت هناك مثل هذه الفئة، فإن السماء تبارك لها عملها وتنصرها، أما إذا لم تكن هناك هذه الفئة فإن السماء تتدخل تدخلا مباشرا، لتنزع ظالماً من قوته وسلطان ظلمه، أو تزيح جبارا فى

الأرض فتنتزعه من أسباب جبروته، المهم أن يحدث شيء ما، يجعل الناس تصيح من أعماقها: «ربنا كبير، ربنا موجود»، وأنت حين تسمع هذه العبارة تحس أن طلاقة القدرة قد تدخلت لتصحح وضعا لا تستطيع أسباب الدنيا أن تصححه، ذلك أن الله خلق الدنيا، وخلق لها قانون الأسباب لتعمل به، فإذا حدث شيء بقانون الأسباب، كأن انتصر قوى على ضعيف، أو تمكن ظالم من مظلوم، فإنك فى هذه الحالة تأخذ المسألة على أنها أمر عادى، لماذا؟ لأن هذا هو قانون السببية الذى تسير عليه الحياة فى عمومها، والذى نشترك فيه جميعاً، فأنت لكى تحصل على الرزق مثلاً يجب أن تعمل، فإذا عملت وأخذت أجرك فهذا شيء طبيعى لا يثير فى نفسك العجب، وأنت حينما تريد أن تسافر إلى مكان فإنك تذهب وتقوم بإجراءاتك وتسافر. شيء طبيعى تابع لقانون السببية، وشيء تشترك فيه البشرية جميعا.

ولكن فى أحيان تجد أن قانون السببية لا يعمل، يفتح الله لك باباً صغيرا، لترى منه قدرته وتحس بعظمته، وبأن قانون الأسباب لا يقيد الله سبحانه وتعالى فيما يشاء، وحينئذ حين تقف أمام قوى تقول كل الأسباب إنه سينتصر عليك، ثم تجده ينهزم وينهار، لا تملك إلا أن تصيح من أعماقك: «ربنا كبير، ربنا موجود»، وحين يراد بك سوء وتحكم أسبابه، ثم يكشفه الله ويدفعه عنك، فإنك فى هذه الحالة تصيح: «ربنا كبير، ربنا موجود».. وحينما تكون فى عسرة من الرزق، ثم يأتى الله سبحانه وتعالى ويفتح لك باباً للرزق من حيث لا تدرى ولا تعلم، شيء لم تكن تتوقعه على الإطلاق، إنسان يأتى إليك ويكلفك بعمل ويجزل لك العطاء، حينئذ تصيح قائلاً: «ربنا كبير، ربنا موجود».

وليست طلاقة القدرة وقفاً على أحد من دون الآخر، بل فى حياة الناس جميعاً، فكلنا رأى طلاقة قدرة الله فى فترة من فترات حياته، رأى طلاقة القدرة فى عدل الله أو رحمة الله، أو شفاء من مرض يئس الأطباء من علاجه، أو رزق جاء ليذهب حالة عسر وضنك، لماذا؟ لماذا يرينا الله طلاقة القدرة فى الدنيا؟ حتى لا ييأس المؤمن أبداً، فإذا توقفت الأسباب عن العطاء، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح باباً من أبواب رحمته، ومن هنا فإن الإنسان المؤمن عندما تصل به الأسباب إلى طريق مسدود، يرفع كفيه دائماً إلى السماء ويقول: «يا رب» ويعلم أن الطريق الذى سدته الأسباب، تفتحه طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.

وفى القرآن الكريم يروى لنا الله سبحانه وتعالى أمثلة من طلاقة قدرته حتى نمضى فى الحياة بلا يأس، فقصة هاجر عليها السلام فيها طلاقة قدرة، ذلك لأن إبراهيم أخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى واد غير ذى زرع، وعند الكعبة المشرفة تركها هى وابنها، وارتاعت المرأة، كيف يتركها وهى امرأة ضعيفة ومعها طفل رضيع فى مكان قفر لا زرع فيه ولا ماء، ولا نبات ولا إنسان، فسألته هاجر هل تفعل ذلك يا إبراهيم بفكرك أنت أم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمرك بذلك، فقال إبراهيم عليه السلام: بل الله أمرنى بذلك، قالت هاجر بإيمان: إذن لن يضيعنا.

وانطلق إبراهيم عائدا وترك الأم وطفلها الصغير فى هذا المكان القفر، هنا فى هذه البقعة كان قانون السببية معطلاً. فلا توجد أسباب للحياة، لا يوجد ماء يشربانه ولا طعام يأكلانه، ولا بشر يعينهما بأن يحضر لهما الطعام والشراب، وهكذا تعطلت الأسباب، وكنا إذا حكمنا قانون السببية فلا بد أن تقول إن الأم وطفلها هالكان لا محالة.

وحاولت هاجر أن تأخذ بقانون الأسباب.. فانطلقت تسعى بين الصفا والمروة، تصعد على هذا التل، وتصعد على ذلك التل، عسى أن ترى إنساناً أو تشاهد طيرا أو تلمح من بعيد قافلة قادمة، كان كل هدفها أن ترى سبباً من أسباب الحياة تتمسك به هى وطفلها، وقطعت المسافة سبع مرات بين الصفا والمروة، تصعد إلى هذا التل، ثم تصعد إلى ذلك التل فلم تجد شيئاً، ولم تجد أحدا، ونال منها التعب، فجلست بجوار وليدها، وإذا بالصغير الضعيف يضرب بكعبه الأرض فينفجر منها «بئر زمزم» وتدب الحياة فى المكان ويمتلئ بالماء، هنا كانت طلاقة القدرة هى التى فجرت الماء، وهى التى أعطت الحياة فى الوقت الذى تعطلت فيه الأسباب [1].

---

(١) روى البخاري [٣١٨٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت:

يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ - حتى بلغ - يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعي الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت، فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل، لو كانت تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينا معينا». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ

وقصة موسى عليه السلام، خافت أمه أن يذبحه فرعون ورجاله، وكان من الممكن

= عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، قالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك في اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا أتى زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء، قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمر ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر، فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [القصص].

أن تهاجر به سرا من مصر، أو أن تذهب إلى مكان بعيد لا يراها فيه أحد، أو أن تختفى به فى مغارة فى جبل، كانت الأسباب تقول هذا، وكانت هذه هى طريقة النجاة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعل من قصة موسى مثلاً على طلاقة القدرة، فأوحى إلى أمه أن تلقيه فى الماء ليكون هذا هو السبيل لنجاته وحفظ حياته، وأنت حين تضع شيئاً فى صندوق وتلقيه فى الماء فإنما تريد أن يراه الناس جميعاً، فالواقف على الشاطئ إذا نظر إلى الماء رأى الصندوق، وكأنما هذا إعلان لا إخفاء، ومع ذلك جعل الله سبحانه وتعالى هذا الإعلان هو عين الإخفاء.

لكن لماذا أعطانا الله هذا الأمثلة، تثبيتاً للمؤمنين على الإيمان، وليس معنى هذا ألا نأخذ بقانون الأسباب ولا نعمل به منتظرين طلاقة القدرة، بل إن طلاقة القدرة لا تأتى إلا إذا استنفد الإنسان الأسباب أولاً، فإذا فرغ الإنسان من الأسباب ولم تعطه شيئاً رفع يديه إلى السماء؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] والمضطر هنا هو الذى يستنفد أسباب الدنيا ولا يجد أمامه مخرجاً، وهذا هو الذى تفتح أبواب السماء له، على أن الله سبحانه وتعالى له اختبارات إيمانية، فهو يختبر صبر العبد وقوة إيمانه وتحمله، وهذه الاختبارات الإيمانية هى الأساس ليزيل الله الضيق ويذهب الهم ويفتح أبواب السماء.

والإيمان بالله هو الإيمان الكامل، فلا يوجد شيء اسمه إيمان ناقص، ذلك أنك إذا أخذت من الإيمان شيئاً فقد أخذت جوهره، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ذلك أن الإيمان هو الالتزام بمنهج الله، والله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين ألا يواجهوا حركة حياتهم إلا بالحق، وساعة تؤمن بالله، معنى إيمانك هو حيثية قبول الحكم منه، فأنت مادمت آمنت أنه الله، القادر، الحكيم، الخالق، فإنك تلتزم بما يطلب منك، فإن لم تلتزم كان إيمانك بلا قيمة ولا وزن، لماذا؟ انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، هذه الآية التى نزلت فى اليهود إنما تبين لنا صفة من صفات الإيمان هى جوهره؛ فالإيمان كالأمانة ليس هناك إنسان أمين وإنسان نصف أمين وإنسان ربع أمين، بل إما أن يكون الإنسان أميناً، أو لا أمانة له، بصرف النظر عن قيمة ما سيأخذه أو ما سيغريه بالتخلى عن الأمانة، فيأتى الله سبحانه وتعالى بمثلين الأول هو: «القنطار»، والثانى هو «الدينار» كلاهما يمثل قيمة نقدية، وفى الوقت نفسه يضرب لنا مثلا إيمانيا، الأول أعطيته قنطارا كأمانة، كبر الحجم والقيمة يغريه بأن يأخذ هذه الأمانة لنفسه، ولكن لأنه أمين لا يقترب منها ويحفظها لك، والثانى أعطيته دينارا، تفاهة القيمة تجعله لا يطمع فيها، ولكنه يطمع فى الدينار ولا يرده إليك إلا إذا قاضيته وذهبت إلى القاضى وإلى

المحكمة وأجبرته على أن يدفعه، إذن فالمسألة هنا ليست بالقيمة ولكن بالالتزام، لا أستطيع أن أقول عن إنسان يسرق جنيهاً إنه أمين لأنه سرق جنيهاً فقط، بل من يسرق جنيها فقد خان الأمانة، كذلك الإيمان، من لا يلتزم بجزء منه فقد انتفى عنه الإيمان.

لذلك نجد الله سبحانه وتعالى حينما يكلفه، ينادى أولا ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، كذا وكذا، يعنى يا من آمنت بى إلهاً، اسمع منى الحكم الذى أريده منك، وأنا لا أطلب هذا الحكم من خلقى جميعاً ولكن أطلبه من الذين آمنوا ؛ لذلك ينادى الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فمن أوفى بعهده الإيمانى فعل، ومن لم يوف بعهده الإيمانى فقد خرج من مناداة الله فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وهكذا يكون الإيمان وفاء بالعهد والتزاماً بما أمر الله به وتنفيذ مراد الله فى أفعل ولا تفعل.

ولا تصدق أبدا أن إنساناً غير مؤمن يحبه الله سبحانه وتعالى، بعض الناس لا يؤدى ما أمر الله به، ثم بعد ذلك يأتى إليك ويقول إنه يحس بأن الله يحبه وإنه يحس بأن الله يرعاه، نقول لهؤلاء جميعاً: لا تعيشوا على الوهم، فالله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بذلك، بل قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤]، لا تعتقد أنك تعصى الله ثم تقول إن الله يحبنى أنا بالذات، لماذا؟ لأن من صفات الله سبحانه وتعالى العدل المطلق، والله لا يفرق بين عباده بل يساوى بينهم جميعا، والله لا يحب الإنسان لذاته، ولكنه يحبه لتقواه، يحب التقوى منه، فالذات البشرية عند الله لا تساوى شيئا، ولكن التقوى والالتزام هو الذى يجعلك قريبا من الله، ذلك لأن الله يحب المتقين، ولذلك إذا أردت أن تبقى فى محبوبية الله فلابد أن تبقى فى تقوى الله، ولذلك ليس هناك ذاتية أو حيثية لشخص ما عند الله تبارك وتعالى إلا بعمله.

إذا أردنا أن نضرب مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - نأتى إلى قصة نوح عليه السلام، والحق سبحانه وتعالى وعد نوحاً بأن ينجيه من الغرق هو وأهله، ثم فوجئ نوح بابنه يكفر ويرفض أن يصعد معه إلى السفينة ويقول: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾ [هود: ٤٣]، ويرد نوح: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٤٣]، ثم يحول بينهما الموج فيغرق الابن ويصاب نوح بذهول.

لقد وعده الله بأن ينجيه هو وأهله، ولكنه أغرق ابنه، فهل وعد الله غير حق؟

فيرفع نوح يديه إلى السماء ويقول: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أى: يارب ابنى هذا من أهلى الذين وعدتنى بأن تنجيهم معى ووعدك يا ربى الحق وأنت وعدت فيرد الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ [هود: ٤٦]، ما معنى هذا الكلام؟ معناه أن الذاتية عند الله وصلات النسب والدم لا تنفع الإنسان ولا تؤهله لحب الله ورحمته ؛ ولذلك تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لابنته

فاطمة: «يا فاطمة إنني لن أغني عنك من الله شيئا»[(١)]، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما خاطب نوحاً لم ينسب الابن لنوح، ولكن نسب الابن إلى عمله، فقال: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾، وأهل الأنبياء هم الذين على منهجهم، هم الذين يتبعون المنهج؛ ولذلك فإن رسُول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بسلمان وهو فارسي وليس عربي الجنسية أو المولد، وقال: «سلمان منا آل البيت»[(٢)]، الذي نسب سلمان إلى آل بيت رسُول الله هو عمله، وليس قرابته أو صلة الدم أو أي شيء آخر، ولعلي أذكر في ذلك قصة كعب بن الأشرف، دخل عليه جماعة في عهد رسُول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه الطعام والكساء، فقال لهم: أتؤمنون بأن محمدا رسُول الله، وكان كعب كافرا، أراد أن يعرف إن كانوا مؤمنين أو لا، فقالوا له: نعم نحن نؤمن بأن محمدا رسُول الله، فقال كعب: لقد حرمتم أنفسكم من الخير، كنت أريد أن أبركم وأن أكسوكم وأن أعطيكم الطعام ولكن بإيمانكم بمحمد حرمتم أنفسكم من خير كثير، فما دمتم قد أعلنتم الإيمان فلا طعام لكم عندي ولا شراب ولا كساء، وجلس أفراد الجماعة يتداولون؛ وقالوا: نحرم أنفسنا من هذا الخير كله؟ فعادوا إلى كعب وقالوا له: دعنا فترة نراجع فيها أنفسنا؛ لأنه ربما كان في ملتنا شبهة، فلما قالوا هذا الكلام أعطاهم الطعام والشراب والكسوة، ولكن هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فقد خرجوا على الإيمان ليحصلوا على الطعام والكسوة، وهكذا كان خروجهم ولو لمجرد قولهم شبهة البعد عن الإيمان بالله، ولكن هل هذا الكلام ينطبق على هؤلاء وحدهم إنه ينطبق علينا جميعا، كل من يزين للسلطان أو الحاكم، فعلاً من الأفعال التي لا يرضى عنها الله ليحصل على نفع شخصي، فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا، كل من يعين إنساناً على باطل أو على ظلم أو يمضي به في طريق غير طريق الحق، يزين له الطريق ويغريه فيه فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، كل من يشهد زورا أو يفعل باطلاً أو يفعل شيئا دنيويا لا يرضى الله فقد اشترى بآيات الله ثمنا قليلا، وحتى تعمم القاعدة: كل من يجعل آية من آيات الله سلعة يبيعها أو يخالفها ليحصل على الثمن يعتبر داخلا في النص.

ماذا يقول الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وما هو الخلاق؟ الخلاق أن توجد صفة في الإنسان تلتصق به حتى أنه لا يوصف إلا بها، فلان اتصف بالصدق، معناها أنه التصق بالصدق، وفلان خلقه الكرم أي أصبح طبعه الكرم، وفلان صفته السماحة إلى آخر ذلك، والله سبحانه

(١) روى البخاري [٢٧٥٣]، ومسلم [٢٠٥/ ٣٥٠]، والترمذي [٣٢١٠]، والنسائي في المجتبى [٣٦٤٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [٦٥٣٩] عن مصعب بن عبد الله رضي الله تعالى عنه.

وتعالى يقول: ﴿ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ ﴾، أى لا صفة لهم فى الآخرة التى هى أساس التقييم الصحيح، والتقييم الصحيح فى الوقت الذى لا يستطيع الإنسان أن يغير فيه شيئاً، فى الوقت الذى هو مقهور فى كل شيء، فمن لا خلاق له فى الدنيا يستطيع أن يعدل سلوكه وأن يغيره، وربما بعد أن يعدل سلوكه يكون له نصيب، أما من لا خلاق له فى الآخرة، ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم فهل يستطيع أن يفعل شيئاً، ذلك الذى خسر إيمانه، ولذلك عندما يحاول الكافرون مخاطبة الله وهم فى النار، يقول لهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وعندما تقرأ آيات الله حول الحساب والآخرة نجد أن الذين يستهينون بيوم القيامة هم الذين لا يؤمنون بالله، ولكن المؤمنين يرتعدون من هول ذلك اليوم، ومن حساب الله الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

على أن الإيمان بالله يجعلك فى درجة عالية جدا، بحيث عندما يحدثك الله سبحانه وتعالى عن الغيبيات فكأنك ترى ما تقرؤه يحدث أمامك، والله سبحانه وتعالى يقول مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرَ رأى العين، ولو أن الله سبحانه وتعالى قال ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، لكان ذلك فى رأى بعض الناس تعبيرا أدق؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم ما دام لم ير فإنه يكون قد علم من غيره، فالعلم قد تحصل عليه باجتهادك الشخصى، وقد تحصل عليه عن طريق غيرك من البشر، فأنت حين تدرس العلوم والتاريخ فى الجامعات فإنك تعلم ما علم غيرك ونقل إليك بواسطة الكتب، ثم تضيف أنت علما بعد ذلك فتصبح إضافة يتعلمها غيرك من الناس الذين سيأتون بعدك، إذن فاستخدام كلمة: «ألم تعلم» بدلا من ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كانت ستكون أدق بشريا.

لكن القرآن الكريم كلام الله لم يكتبه بشر، والحديث فى قضية من قضايا الإيمان بالنسبة لإنسان مؤمن بمثابة رؤية صادقة، فإذا جاء من الله فهو رؤية يقينية، ولأن القرآن يحدثنا عن غيبيات مما سيحدث فى الآخرة.. والإيمان أساسا إيمان بالغيب فإذا لم تكن متيقناً من أنك ستقابل فى الآخرة كل ما ذكره الله سبحانه وتعالى، فإنه فى هذه الحالة يهتز إيمانك.

إن أساس اليقين البشرى فى الدنيا هو الرؤية بالعين، وما دمت أراك أمامى فلا يوجد سؤال فى نفسى: هل أنت موجود داخل الحجرة أم غير موجود، ولا يثور حول ذلك جدل، وإذا كنت أجلس وأتحدث مع زوجتى فلا أسأل نفسى هل هى موجودة فى البيت أم لا، تلك بديهيات لا تدخل فى مجال المناقشة، ويسلم بها كل إنسان ولعل الجدل الذى كان قائما حول كروية الأرض انتهى تماما حين صعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على شكل كرة كبيرة هائلة، وفى تلك اللحظة توقف الجدل تماما لأن رؤية العين حولت

القضية من جدل علمى إلى يقين بصرى وانتهى كل شيء ولا مجادلة.

وأنت فى قضية الإيمان تناقش كل شيء بعقلك وتبحث الأمور وتزنها، فتقارن الحجة بالحجة إلى أن تهتدى للإيمان، عند هذه النقطة يستقر الإيمان فى قلبك ولا يطفو مرة أخرى إلى العقل ليناقش من جديد، فإن عاد مرة أخرى إلى العقل فإيمانك فى هذه الحالة إيمان ناقص.

فإذا آمنت إيمانا كاملا، وأخبرك الله سبحانه وتعالى عن شيء فهو رؤية يقينية فى نفسك تماما كالرؤية اليقينية التى تتم بالعين، فإذا حدثك عن النار مثلا فكأنك تراها، وإذا حدثك عن الجنة فهى يقين رؤية فى نفسك، وإذا حدثك الله سبحانه وتعالى عن شيء مضى، فهو يقين فى نفسك كأنك عشته، إذن فالعملية هنا قضية إيمانية كبرى، فالسماع من الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن يقينى، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهى رؤية يقينية تماثل رؤية العين.. ولأن القرآن لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة، لذلك فإن المسائل المستقبلية فيه تظل مستقبلية، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فمعنى ذلك أن هذا الأمر سيظل أبديا، بمعنى أن هذه الآية حين نزلت قرئت سنريهم، نحن الآن نقرؤها سنريهم، والذين سيأتون بعدنا سيقرأونها سنريهم، وهكذا يريد الله لنا أن نعرف أن هناك عطاء جديدا من الله سبحانه وتعالى لكل جيل، غير عطائه للجيل الذى قبله، ولذلك فإن حرف «السين» فى القرآن يحمل إعجازا مستقبليا حتى يوم القيامة.

ولكن لماذا جاءت كلمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فى سورة الفيل، ولماذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون حادث الفيل هذا يقينا مثل يقين الرؤية؟ لأن هذا الحادث يمثل طلاقة القدرة التى تعطى شعاع الإيمان وتطرد شعاع اليأس من المؤمن نفسه، فالحادث كما نعرفه أن أبرهة جاء بعدد ضخم من الأفيال ليهدم الكعبة، وخرج سكان مكة إلى الجبال تاركين البيت لأنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام أبرهة وأفياله وجنوده وجيشه الجرار، هنا حادث إيمانى هائل، رجل استعان بجبروت الدنيا - وهو أبرهة - ليهدم بيت الله الحرام، وقوة دنيوية أخرى وهم سكان مكة خافوا من جبروت الأرض وتركوا البيت، حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى، لقد انطلق أهل مكة إلى شعاب الجبال، وتركوا الطريق خاليا بين جيش أبرهة الجبار وبين بيت الله الحرام، ولم يكن أمام أبرهة إلا أن يمشى مسافة قصيرة بلا مقاومة ليهدم البيت، وهكذا تخلى البشر عن قضية حق وهى حماية بيت الله الحرام ممن يريد أن يهدمه وابتعدوا جميعا.

هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفجر قضية إيمانية كبرى، أو أن يريهم أن الجبار الذى يخشونه، والجيش الجرار الذى يهابونه هو عند الله لا يساوى شيئا، وأن صاحب الحق الضعيف يجب ألا يخاف من الباطل القوى، ولذلك جاء الله سبحانه وتعالى بالطير،

تلك المخلوقات الضعيفة التى إذا أمسكتها بيدك وضغطت عليها بقوة ماتت أو فقدت الحياة، جاء الله سبحانه وتعالى بهذه المخلوقات الضعيفة، وقال سأريكم أيها البشر أن أضعف مخلوقاتى سيهدم هذا الجيش الجبار ويمحقه، وانطلقت الطير تحمل حجارة صغيرة قضت على الفيلة الجبارة فى زمن قصير وحطمت الجيش تماما، حدث هذا أمام أعين الناس وشهده الجميع.

والعجيب أن بعض العلماء لا يتقبل أن طيرا صغيرا يهزم جيشا جبارا من الفيلة كجيش أبرهة، فأخذ بعضهم يشكك فى الرؤية، ويقول إنها جراثيم هى التى قتلت جيش أبرهة وقضت عليه، كأنما هى مسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى أن يرسل طيرا ضعيفا ليقضى على جيش من الأفيال القوية، ولذلك فهم يريدون أن يسهلوها على الله سبحانه وتعالى.

ونقول لهؤلاء جميعا إن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجا إلى عون أو مساعدة، وأن عام الفيل عام مولد رسُول الله، ورسول الله بعث فى الأربعين، أى إنه كان هناك من هم فى سن الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين ومن هم فوق ذلك، هؤلاء جميعا رأوا عام الفيل رؤية العين، فلو لم تأت هذه الطير، ولو لم تلق بحجارة من سجيل، ولو لم تجعل جيش أبرهة عصفا مأكولا لكان هؤلاء الناس قالوا إن ما يقوله محمد غير صحيح، ولقد شهدنا عام الفيل ولم نَرَ طيرا تأتى ولم نرها تفنى جيشا عظيما وفيلة جبارة بأحجار صغيرة، ولكن أحدا من الكفار أو غير المؤمنين، الذين كان يهمهم الطعن فى هذا الدين لم ينفوا هذه الواقعة وقت نزولها، مع أنهم رأوها وهذا دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم، ولعل هذا ينبهنا إلى الحكمة فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾؛ لأنه وجد من بيننا الآن من يتشكك فى هذا الأمر، فكان لابد أن يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وكأنها جاءت ردا على هؤلاء الذين تشككوا فى الماضى والذين يتشككون الآن.

❁ ❁ ❁

التكليف.. وحرية الاختيار

العبادة لله سبحانه وتعالى هى تكليف، والتكليف إنما جاء ليضيق حركة الاختيار عند الإنسان، أفعل هذا، ولا تفعل هذا، والله قيد حركتنا حينما وضع المنهج بأفعل ولا تفعل ولو أننا درسنا العلة فى تقييد حركة الإنسان لحمدنا الله سبحانه وتعالى على منهجه، فما قال أفعل كان الخير فيه، وما قال لا تفعل كان الخير فى تركه، فكأن التكاليف لو عقلها العاقل، لعلم أن الله المعبود المكلف وضع لنا كل ما هو كريم فى الحياة، وضمن لنا عدم التصادم مع الكون. . لأن الله يريد أن يوفر للإنسان المؤمن الحياة الطيبة الآمنة . . لذلك فهو يضع قواعد هذه الحياة، قد يكون هذا شاقا على بعض النفوس، ولكننا لو تأملنا لوجدنا المشقة ضئيلة جدا لتقى المجتمع من شرور رهيبة، والله سبحانه وتعالى حين يمنعنى عن السرقة قد يحمينى من نزوة نفس، ولكنه إذا أباح السرقة فقد أباح مالى للمجتمع كله، وهو حين يحرم القتل، ربما منعنى من نزوة انتقام، ولكن تعالوا وانظروا إلى مجتمعات أبيحت فيها السرقة والقتل والنهب - كما يحدث الآن فى بعض المدن الأمريكية - أرأيت إنسانا آمنا على نفسه هناك، أرأيت إنسانا يخرج من بيته فى الصباح ويعرف أنه سيعود إلى أولاده أو لا يعود، أرأيت إنسانا آمنا على طعام اختزنه لساعة عسرة أو لإطعام أولاده الصغار، أرأيت إنسانا يمشى فى الشارع يلتفت يمنة ويسرة لا يعرف من أين يأتيه الموت، إنه مجتمع رهيب، ومنذ عدة سنوات انقطعت الكهرباء فى مدينة نيويورك بأمريكا عدة ساعات فارتكبت ألوف الجرائم من السرقة والاغتيال والنهب، وقعت كل هذه الجرائم خلال خمس ساعات أو ست ساعات من الظلام انطلق المجتمع كله يقتل بعضه، وينهب بعضه، ويسرق بعضه، ويفتك بعضه البعض الآخر، هذه تجربة حدثت فعلا فى مجتمع يوصف بأنه متقدم، ولو أن انقطاع التيار الكهربائى هذا حدث فى بلد يطبق حدود الله كالسعودية مثلا حيث تقطع يد السارق، لو أن التيار الكهربائى انقطع هناك عدة أيام لا عدة ساعات لما حدثت جريمة واحدة، ولعاش كل طفل وامرأة وشيخ فى أمن وأمان، ولتعاونوا جميعاً على قضاء حوائجهم فى الظلام، وهذا هو الفارق، هذا هو الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يوفره لكل مؤمن، يريد أن يوفر له الأمن والأمان والحياة الطيبة الكريمة، وهذا لا يتأتى فى أى مجتمع لا يقيم حدود الله، مهما قيل عن هذا المجتمع إنه متقدم، ولن تجد فى مجتمع لا يقيم حدود الله حياة طيبة، بل تجد الخوف يسيطر على كل إنسان، كل متربص بالآخر، وكل يحمل سلاحا ليدافع عن نفسه أو ليهاجم غيره. هل عرفنا الآن بمثل حى قريب ما معنى تطبيق منهج الله، وهل شهدنا كيف يتصادم الإنسان

مع الحياة إذا ابتعد عن هذا المنهج فينقلب الأمن إلى خوف والطمأنينة إلى ذعر، والحياة الطيبة إلى حياة بائسة.

إذن.. فمن نعم الله علينا أنه وضع لنا منهج الحياة ولم يتركنا نضعه لأنفسنا، ذلك لأنه لو تركنا نضع نحن المنهج لفسدت الدنيا، ولاعتدى القوى على الضعيف، وأخذ القادر حقوق غير القادر، ومن نعم الله أيضا أنه رب كل شيء، ومن هنا فإن ما سخره الله لنا لا يستطيع أن يتمرد على أمر الله، فالشمس والقمر والهواء والجبال والأرض، كلها لا تستطيع أن تعصى أمر الله، فى أن تخضع للإنسان، وتخدمه، وتفعل ما هى مسخرة له، فلا الشمس مثلا تستطيع أن تقول إنها لن تشرق اليوم أو غدا، أو تستطيع أن تبتعد عن الأرض فتحولها إلى كتلة من الجليد، أو تقترب منها فتحولها إلى مكان حار ملتهب تنتهى فيه الحياة، ولا يستطيع الهواء أن يقرر مثلاً فى يوم من الأيام أن يترك سطح الأرض ويذهب بعيدا، وتصبح الأرض بلا غلاف جوى، الحياة فيها مستحيلة، ولا تستطيع البحار والأنهار أن تجف، ولا الجبال أن تزول وهى الرواسى التى تحفظ سطح الأرض واتزانها، كل هذا لا يمكن أن يتم لأن الله رب العالمين، رب هذه المخلوقات كلها، وكل هذه المخلوقات تخضع لأمر الله سبحانه وتعالى، ولو كان هناك أكثر من إله لفسدت الأرض لأن كل إله كان سيصدر أوامر مختلفة إلى ما خلق أو ما يسيطر عليه، وكل ما سخره الله سبحانه وتعالى للبشر هو عالم مقهور لا اختيار له، أو هو عالم كما سبق أن بينا اختار أن يكون مقهورا لله على أن يأخذ الحرية افعل ولا تفعل، ولذلك فقد يرى الكون الإنسان عاصيا لله، وهذا تصادم بين كون يخضع خضوعا تاما لله وإنسان عاص، ولكن رغم ذلك لا يستطيع هذا الكون أن يخرج عن تسخير الله له لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا هذا فى الحياة الدنيا أما فى الآخرة فإن كل هذه الأشياء المسخرة من الله تشهد على الإنسان ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، فيقولون: ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ [فصلت: ٢١]، فتقول: ﴿ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١]، أى إن جوارح الإنسان هى خاضعة له بالتسخير فى الحياة الدنيا فإذا أمرها بمعصية تؤديها كارهة لأنها مسخرة لا تستطيع أن تعصى للإنسان أمرا، فإذا جئنا إلى الآخرة وزال التسخير، نطقت الأيدى والأرجل والجلود بما كان الإنسان يفعله من المعاصى.

لذلك يصور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى رحمة الخالق بالإنسان وجحود الإنسان لربه.

«قالت الأرض: يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم الأرض فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وقالت السماء: يا رب ائذن لى أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وقالت الجبال: يا رب ائذن لى أن أخر على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع

شكرك، وقالت البحار: يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك».

إذن.. كل العوالم التى سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ضجت من معصيته وتوجهت إلى الله سبحانه وتعالى طالبة الإذن أن تُفنى ابن آدم من الوجود جزاء له على معصيته، ويمضى الرسُول الكريم مكملاً، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: «لو خلقتموهم لرحمتموهم، دعونى وعبادى إن تابوا إلى فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم».

إذن.. هذه هى رحمة الله بخلقه، تلك الرحمة التى جعلته يسخر لنا ما فى الكون، ثم يمنع كل ما هو مسخر من أن يخرج عن طاعة الإنسان، هذه هى رحمة الله وصبره على عباده، وعدم مواجهة الإساءة بالعقوبة، وفتحه باب التوبة والمغفرة لكل نادم على معصية. وفتحه باب رحمته لكل عاص، إن الله لا يأمر الأرض أن تهلك من فوقها بزلزال مدمر، ولم يأمر المياه أن تغرق الأرض، ولم يأمر السماء أن تسقط كسفا على الناس، بل منع كل هذا برحمته، وفتح التوبة والمغفرة ووضع لنا منهج الحياة، ومع ذلك فنحن نعصيه.

❁ ❁ ❁

لغة الكون

الله سبحانه وتعالى جعل لكل خلق من خلقه إدراكات، ولكن ظنون الناس وعقولهم لا تتسع لهذا، فكل خلق نراه أمامنا أولا نراه يتفاهم مع خالقه، مع أننا لا نستطيع أن نتفاهم مع بعضنا البعض، ويريد البعض منا ألا يتفاهم مع منهج الله، فالشمس لها حديث مع الله، والأرض لها حديث مع الله، والجبال لها حديث مع الله.

اقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

خطاب مع الله سبحانه وتعالى، قول السماء والأرض وهي تناجي خالقها، وهنا نتوقف قليلا، هل يقال الشيء أو يقول الشيء إلا أن يكون هناك فهم من القائل، وهل حديث الشمس أو الأرض الذي ورد في القرآن الكريم ليكشف لنا إدراكات هذا الفهم الذي تعجز عقولنا عن فهمه، الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه علم سليمان منطق الطير، وأن سليمان فهم من النملة، وأن الجبال يسبحن مع داود، وعرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع تسبيح الحصى وهي في يده(١)، والحصى يسبح سواء كان في يد رسول

(١) عن سويد بن زيد قال: رأيت أبا ذر جالساً وحده في المسجد، فاغتنمت ذلك فجلست إليه فذكرت له عثمان فقال: لا أقول لعثمان أبدا إلا خيرا، لشيء رأيته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أتبع خلوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتعلم منه، فذهبت يوماً فإذا هو قد خرج فاتبعته، فجلس في موضع فجلست عنده، فقال: «يا أبا ذر ما جاء بك؟». قال: قلت: الله ورسوله. قال: فجاء أبو بكر فسلم وجلس عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: « ما جاء بك يا أبا بكر؟». قال: الله ورسوله. قال: فجاء عمر فجلس عن يمين أبي بكر فقال: «يا عمر ما جاء بك؟». قال: الله ورسوله، ثم جاء عثمان فجلس عن يمين عمر فقال: «يا عثمان ما جاء بك؟». قال: الله ورسوله. قال: فتناول النبي صلى الله عليه وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن في يده، حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرسن. قال الهيثمي في مجمع الزوائد [٨/ ٥٢٨] رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف. وقال الحافظ في الفتح [٦/ كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام]، قلت: وقد اشتهر تسبيح الحصى، ففي حديث أبي ذر قال: «تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبحن». أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط» وفي رواية الطبراني «فسمع تسبيحهن من في الحلقة»، وفيه: «ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا» قال البيهقي في

الله أو بعيدا عن يده، ولكن الله سبحانه وتعالى أفهم رسول الله لغة الحصى فسمع تسبيحه، كما فهم سليمان عن النملة، وجذع النخلة بكى حنينا إلى رسول الله (١).

إذن.. كلها عوالم لها إدراكات، بل إننى أضيف لهذه العوالم عواطف، مع أن العواطف مشهور عنها أنها عند الإنسان فقط، ولكن انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى عندما يتحدث عن إخراج قوم فرعون من مصر ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ ﴾ [الدخان]، ثم يقول الله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾.

إذن.. السماء والأرض لهما بكاء، وما دامت السماء والأرض لم تبكيا على آل فرعون، فإن لهما مناسبات تبكيان فيها، ولو أن السماء والأرض لا تبكيان على أحد لما كان الله تعالى يخبرنا بذلك، ولكن قول الله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ [الدخان: ٢٩]، يدل على أنهما تبكيان، وهما تبكيان العبد الصالح، الأرض تبكى مكان سجود العبد المؤمن عليها، والسماء تبكى مكان صعود دعاء العبد الصالح إليها، فالمكان الذى يصلى فيه الإنسان ويدعو ربه، المكان الذى لم يشهده إلا على طاعة، ولم يره فى معصية، ينسجم مع هذا العبد الصالح، ويأنس بجلوسه فيه.. فإذا فارقه الإنسان بالموت مثلا يحزن عليه ويبكى، ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: «إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان موضع فى الأرض وموضع فى السماء، أما موضع الأرض فهو مصلاه، المكان الذى كان يسعد وهو يسمع الإنسان يصلى ويسبح مولاه، أما الموضع فى السماء فهو مصعد عمله الطيب الذى يتقبل فيه دعاؤه» (٢).

= «الدلائل» كذا رواه صالح بن أبي الأخضر - ولم يكن بالحافظ - عن الزهري عن سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذر، والمحفوظ ما رواه شعيب بن أبي حمزة عن الزهري قال: « ذكر الوليد بن سويد أن رجلا من بني سليم كان كبير السن ممن أدرك أبا ذر بالربذة ذكر له عن أبي ذر بهذا».

(١) روى البخارى [٣٥٨٤] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أونخلة فقالت امرأة من الأنصار - أو رجل -: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم. فجعلوا له منبرا. فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبى، ثم نزل النبى صلى الله عليه وسلم فضمها إليه، تئنُّ أنين الصبى الذى يُسكَّنُ. قال: كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها.

(٢) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج الترمذي وابن أبي الدنيا في ذكر الموت، وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والخطيب، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان باب يصعد منه عمله، وباب ينزل عليه منه رزقه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه، وتلا هذه الآية: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ [الدخان: ٢٩] وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملا صالحا يبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح، فتفقدهم فتبكي عليهم.

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه خلق انفعالات للأرض والسماء،

= وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل، عن قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء، فقده فبكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير، عن قتادة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: هم كانوا أهون على الله من ذلك. قال: وكنا نحدث أن المؤمن تبكي عليه بقاعه التي كان يصلي فيها من الأرض ومصعد عمله من السماء.

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض صباحا. قال: فقيل له تبكي، ما تعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره دوي كدوي النحل؟!

وأخرج عبد بن حميد، عن مجاهد رضي الله عنه قال: إن العالم إذا مات بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا.

وأخرج عبد بن حميد، عن معاوية بن قرة رضي الله عنه قال: إن البقعة التي يصلي عليها المؤمن تبكي عليه إذا مات وبحذائها من السماء، ثم قرأ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾.

وأخرج عبد بن حميد، عن وهب رضي الله عنه قال: إن الأرض لتحزن على العبد الصالح أربعين صباحا.

وأخرج عبد بن حميد، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: لم تبك عليهم السماء لأنهم لم يكونوا يرفع لهم فيها عمل صالح، ولم تبك عليهم الأرض، لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة، عن مجاهد رضي الله عنه قال: كان يقال: الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحا.

وأخرج أبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يقال الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحا.

وأخرج ابن المبارك وأبو الشيخ، عن ثور بن يزيد، عن مولى لهذيل قال: ما من عبد يضع جبهته في بقعة من الأرض ساجدا لله عز وجل إلا شهدت له بها يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلا رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: إنهما لا يبكيان على كافر.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن عباد بن عبد الله رضي الله عنه قال: سأل رجل عليا، هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله في السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا مصعد في السماء. =

فإذا قالت الأرض شيئاً، أتقوله لى أم لمن خلقها، تقوله طبعاً لمن خلقها، ولا يعز على مَنْ خلقها أن يتفاهم معها، لأن الأشياء فى التكوين منفعلة للخالق، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وهكذا تصبح الكلمة وجودا، وكل شىء فى الكون موجود بكلمة ﴿ كُن ﴾، وكل شىء منفعل لله سبحانه وتعالى لأنه وُجِد من الله، قال له: ﴿ كُن ﴾ فتم الخلق، ولا يحدث ذلك إلا إذا كان هناك فهم من هذا الشىء لأمر الله سبحانه وتعالى.

وكل شىء فى الدنيا والآخرة هو فى علم الله سبحانه وتعالى، فالله لا زمن عنده ولا شىء يحجب المستقبل، ولكن الزمن عندنا نحن.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ . . . ۝ ﴾ [الحديد].

إذن.. فالوجود كله فى علم الله سبحانه وتعالى، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شىء، ولا يمكن أن يتم خلق شىء إلا إذا كان خالقه يعلمه ولا يجهله، ولا

= وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر من طريق المسيب بن رافع، عن علي رضي الله عنه قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم تلا: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي، عن مجاهد رضي الله عنه قال: ما من ميت يموت إلا تبكي عليه الأرض أربعين صباحا.

وأخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحا. ثم قرأ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾.

وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا، عن عطاء الخراساني رضي الله تعالى عنه قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض، إلا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد المكتب، عن إبراهيم رضي الله تعالى عنه قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا، إلا على اثنين. قيل لعبيد: أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه وحيث يصعد عمله. قال: وتدري ما بكاء السماء؟ قال: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان إن يحيى بن زكريا لما قتل، احمرت السماء وقطرت دما. وإن حسين بن علي يوم قتل احمرت السماء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن زياد رضي الله عنه قال: لما قتل الحسين، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن عطاء رضي الله تعالى عنه قال: بكاء السماء حمرة أطرافها.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن رضي الله تعالى عنه قال: بكاء السماء، حمرتها.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه قال: كان يقال: هذه الحمرة التي تكون في السماء، بكاء السماء على المؤمن.

يمكن أن يكون المخلوق قيدا على خالقه، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، ما خلق، وما سيخلق، وما سيتم إلى يوم القيامة.. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد، فإذا أراد أن يخلق يوما مثلا مقداره أربع وعشرون ساعة، قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، وإذا أراد أن يخلق يوماً مقداره ألف سنة، قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، وإذا أراد أن يخلق زمناً للناس قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، ومن صفات مخلوقيته عز وجل أنه يخلق الماضي والحاضر والمستقبل، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بذلك في القرآن الكريم، فمزق لنا حجب المستقبل فقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ... ۞ ﴾ [الروم].

ولقد نزلت هذه الآية عندما قام الفرس بحرب الروم وهزموهم، وكان الروم يعتنقون المسيحية، والفرس كفرة لا يؤمنون بالله، وفرح المشركون بهزيمة الروم لأنهم يناصرون أهل الكفر وهم الفرس، ونزلت الآية بأن الروم سيغلبون في بضع سنين.

والسؤال هنا أنه لو كان هذا القرآن من عند غير الله، لما غامر أبدا رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلام لا يتبدل ولا يتغير، متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، يعلن ويؤكد نتيجة معركة حربية ستحدث بعد بضع سنين بين دولتين، لأن هذا يعرض قضية الإيمان كلها للخطر، فماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس تصالحا ولم يتقاتلا، أو أنه بدأت معركة هزم فيها الروم مرة أخرى.. ومن الذي يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستقوم بعد ثماني سنوات، ويحدد الغالب فيها مع أن أحدا لم يطلب منه ذلك.

ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدد، وهو الذي يخلق النصر والهزيمة، وكل ما سيحدث في علمه، جاء القرآن يتحدى ويمزق حجاب المستقبل، الذي لا يستطيع أن يمزقه أحد، ويعلن نتيجة معركة حربية، ويعلن مَنْ المنتصر، ويعلنها بثقة تامة، وتمر السنون وتحدث المعركة كما تنبأ القرآن تماما.

علم الله حتى يوم القيامة وما بعد يوم القيامة، وإذا كان القرآن قد مزق الحجب، وأتى بمعجزات لا تزال تتضح كل يوم، فإنه قد أتى بذلك ليفيق عقل البشر، فيعرفوا يقيناً أن القرآن منزل من عند الله فيتبعوه، ولكن ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، صدق الله العظيم، والله ولي التوفيق.

۞ ۞ ۞

الأمثال فى القرآن الكريم

لماذا ضرب الله الأمثال؟ الله سبحانه وتعالى ضرب للناس الأمثال فى القرآن الكريم قال: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦].

الله سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان وربطها بالهدى والضلال فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد الله سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمن ليزداد إيمانا، وأراد الله أن يرد بها على الكافرين.

قبل أن نبدأ لنتحدث عن: لماذا ضرب الله الأمثال فى القرآن الكريم فإننا لابد أن نفرق بين المثال والمثل.

أولاً: هناك كلمة مثل وهناك كلمة مثال ومِثل - بكسر الميم - تعنى: التشبيه بشىء؛ أى إن هذا الشىء الذى نتحدث عنه يشبه كذا تماما، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، أو ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨]. ومعنى ذلك بسورة كالقرآن تماما أى إن هناك تشبيه حالة بحالة.

ونحن إذا أردنا فى الدنيا أن نستعمل كلمة مثل نقول هذا الشىء مثل الكرة؛ لأنه مستدير كهيئة الكرة تماما، أو أن نقول إن هذا الشىء يشبه سنام الجمل؛ أى إنه على هيئة سنام الجمل تماما، وهنا نحن نشبه حالة بحالة أو مفردا بمفرد.

أما المَثل - بفتح الميم - فهى تختلف عن ذلك تماما؛ ذلك لأنها لا تشبه شيئاً فرديا بشىء فردى ولا تشبه حالة بحالة مثلها، ولكن المثال يأتى لتقريب فكرة ما إلى الذهن البشرى، بحيث يستطيع أن يستوعبها ولا يشترط أن يكون المثال من نوع الشىء نفسه الذى نتحدث عنه، بل قد يكون مختلفا تماما ولكنه فقط يعطينا الفكرة.

ولتوضيح هذه النقطة قليلا:

إذا أخذنا الأمثال فى حياتنا وجدنا أنها تقرب المعانى؛ فمثلاً حينما تواجه إنسانا يتحداك أو يحاول أن ينال منك مغترا بقوته مزهوا بقدراته تقول له: إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار حتى تضرب مثل هذا المثل، ولكنك تريد أن

تقول إذا كنت قويا فأنا أقوى منك فاستخدمت فى هذا كلاما يعطى المعنى بدون أن تتقيد بالأشخاص ولا بالحالة نفسها، ولا تتقيد بأن يكون ما قلته بِمثل - بكسر الميم - ما هو حادث فعلا فليس هناك ريح ولا هناك إعصار حتى يكون التشبيه مماثلا ومطابقا لما تريد أن تقوله، ولكنك استخدمت الفكرة المعروفة فى أن الإعصار أقوى من الريح وأقدر على مواجهتها لتدلل على المعنى الذى تريده؛ وهو أنك إذا كنت قويا فقد لقيت من هو أقوى منك.

وهناك مثل آخر يقول: «قبل الرماية تملأ الكنائن» ومعنى ذلك أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب، وتقابل الرمى بالسهام؛ لابد أن تكون كنانتك التى تمتلئ بالسهام وتحملها وراء ظهرك، لابد أن تكون قد ملأتها وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية فلن تستطيع أن تقاتل، تأتى أنت إلى ابنك مثلاً، وتجده طوال السنة يلعب ولا يذاكر ثم فى ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولا أن يستوعب فتقول له قبل الرماية تملأ الكنائن؛ أى إنك لم تستعد طوال العام ولم تذاكر لذلك فإن كنانتك خالية فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غدا وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان.

والمثال هنا لا يرتبط بواقع الشىء فلا ابنك ذاهب للقتال، ولا توجد سهام ولا كنائن بحيث يكون التشبيه مطابقا للأحداث، ولكنك لا تريد ذلك؛ بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى بصرف النظر عن الواقع الحادث فبالتالى فإنك فى هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد.

وهكذا باقى الأمثال كلها لا تُشبه شيئا بشىء بعينه؛ بل إن الذى تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفا عن الذى يحدث فعلا ولكنه يعطيك المعنى نفسه ويقربه إلى عقلك، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه وهناك مئات الأمثال التى نعرفها جميعا مثل أبدى المخض عن الزبد وما وراءك يا عصام إلى آخر هذه الأمثال التى نرددها كل يوم.

اللّه سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال ليقرب إلى أذهاننا معانى هى غيب عنا؛ ذلك أن الغيب لا يصل إليه العقل البشرى مهما اجتهد؛ لأن هذا العالم محجوب عنا، وكل ما هو محجوب عنا هو عدم بالنسبة للعقل والفكر البشرى لا يستطيع أن يصل إليه.

فمثلاً إذا أخذنا الأشياء التى لم تكن موجودة فى حياتنا ثم أصبحت موجودة هذه الأشياء مثل التليفون أو التليفزيون أو الطائرة إلى آخر علم اللّه الذى أظهره للإنسان ومكنه منه، هل كان من الممكن قبل أن توجد هذه الأشياء أن يستطيع العقل استيعابها؟ طبعا لم يكن من الممكن؛ وحتى الأسماء التى وضعت لها لم تكن موجودة فى لغة البشر قبل أن توجد هذه الأشياء لأن العقل لم يكن يستوعب هذه الصورة أو هذا الاختراع الجديد وباختصار كان هذا فوق قدرة العقل البشرى وأدخله اللّه تعالى فى قدرة العقل البشرى بأن

كشف الله له عنه وهكذا خرج إلى علم الإنسان وأصبح مألوفا لديه بعد أن كان مجهولا فلو أننا جئنا بإنسان ولد منذ خمسمائة سنة وناقشناه عن هذه الأشياء لما فهمها، ولو قلنا إن الإنسان يطير فى الهواء ويصل الآن إلى القمر ويخترق الفضاء لاتهمنا بالجنون؛ ذلك لأن هذه الأشياء بالنسبة لعقله كانت معدومة تماماً لا وجود لها، ولكن الآن أصبحت تدخل فى نطاق العقل البشرى حتى العقل الذى لم يتعلم شيئا ولم يدخل المدرسة فى حياته فإنه لا يستغرب إذا قلت له الطائرة وسفينة الفضاء إلى آخر ما يقال.

هنا لنا وقفة قبل أن نمضى فى الحديث، الله سبحانه وتعالى غيب عنا لم يره أحد ومع ذلك فإن لفظ الجلالة فى كل لغة من اللغات موجود، وإذا قلت كلمة «الله» لأى إنسان لا يستغربها بل يحس بمعانى الجلالة والخلق والقدرة والقوة بشكل لا يتفق مع منطق الأشياء الدنيوية، بل إن الملحدين الذين يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى إنما يؤكدون هذا الوجود؛ ذلك لأن الشىء لا ينكر إلا إذا كان موجودا، أما إذا كان غير موجود فإنه ليس محتاجا إلى إنكار فإنه بطبيعة عدمه لا يفرض أى جدل، فإذا كان هناك كوكب مختف عنا فى السماء لا نراه هل يُثار هناك جدل بين العلماء عن هذا الكوكب، والمشكلة نفسها التى تطرح هذا الجدل غير موجودة وإذا كان هناك فى باطن الأرض أو فى الغلاف الجوى أشياء لا نعرفها ولم نصل إليها هل يجادل أحد فيها؟ وكيف يقوم الجدل ونحن لا نعرفها وكيف يمكن المناقشة والعقل لا يستطيع أن يصل إليها، ومن هنا فإن أى جدل يتم على شىء فلابد أن يكون هذا الشىء موجودا، وكون أن أى إنسان يحاول ستر وجود الله ويقول إن الله سبحانه وتعالى غير موجود - وأعوذ بالله من هذا - فإنه فى هذه الحالة يثبت هذا الوجود وإلا فما الذى أنكره؟ وما هو هذا الشىء الذى أحاول أن أثبت أنه غير موجود؟

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى موجود بذاته، موجود بآياته، تدرك العقول معنى لفظ الجلالة مصداقا للآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝﴾ [الأعراف].

إذن.. فهذه الآية التى هى معجزة من معجزات القرآن تبين لنا كيف أن العقول كلها تدرك معنى لفظ الجلالة مع أن أحدا لم ير الله، إلا أننا جميعا - الجاهل منا والمتعلم الذى قرأ والذى لم يقرأ سطرا واحدا فى حياته - إذا ذكر أمامه لفظ الجلالة كان له معنى وأُلفة ولم يستغربه أحد، وهذا دليل لغوى على وجود الله سبحانه وتعالى، ودليل على أن العقل يعرف خالقه وأن المعنى معروف لديه؛ بل إن الذى يحاول ستر وجود الله نقول له إنك تثبت وجود الله ذلك أنه لو كان الله سبحانه وتعالى غير موجود كما تزعمون ما كان هناك سبب لمحاولة ستر وجوده وكأنك فى هذه الحالة تثبت أن الله موجود.

تلك هى المعجزة التى لا بد أن ننتبه لها، أو أن نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى موجود فى قلب وعقل كل واحد منا وأننا جميعا إذا ذكر اسم اللّه أمامنا عرفنا ولم نشعر بعدم ألفة وهذا إعجاز اللّه.

ولذلك فإن العقل البشرى - وهو يألف وجود اللّه ويحس به - يبدأ فى البحث فى الكون فيرى آيات اللّه سبحانه وتعالى الدالة عليه جل جلاله، يرى الشمس كل نهار، ويرى النجم كل مساء، ويحس بالهواء الذى يتنفسه والذى هو لازم لحياته، ويرى الماء يملأ الأرض ويروى الزرع الذى يقتات منه، كيف خلقت التربة لتغطية هذا الزرع ليعيش ويرى نعم اللّه سبحانه وتعالى تحيط به فى كل مكان؛ فالأرض ولو أنها كرة مستديرة إلا أن اللّه سبحانه وتعالى قد مهدها له ليستطيع السير فيها والتنقل، والإنسان ولو أنه يقف فوق الأرض ورأسه فى الهواء إلا أن جاذبية الأرض تمسك به فلا يطير فى الهواء؛ بل هو يستطيع أن يسير مطمئنا وقد لا يدرى أنه يسير فوق كرة كما كان فى الماضى قبل أن يعرف الناس كروية الأرض، والأغنام التى خلقها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان مسخرة له تعطيه اللبن وهو أحد مقومات الحياة، وتعطيه اللحوم ولها منافع كثيرة، والماء ينزل ليسقى الزرع والأغنام ولا ينتهى أبدا، فكلما شرب منه الناس وارتوى منه الزرع، وشرب منه باقى مخلوقات اللّه؛ جاء مطر جديد لتستمر الحياة.

كل هذا النظام البديع الذى يسير عليه الكون لا بد له من مُوجد، ومِنْ خالق قائم عليه بنظام غاية فى الدقة، وهنا يعرف الإنسان بالعلم كما عرف بالفطرة أن لهذا الكون إلها هو الذى أوجد كل هذه النعم وهو الذى خلق الإنسان.

غاية ما يستطيع أن يصل العقل إليه هو أن يعرف وجود اللّه بآياته فى الكون وفى الخلق، ويعرف أنه إله واحد لا شريك له، ولماذا؟ لأن اللّه قد أخبرنا بأنه هو الذى خلق كل هذا وسخره للإنسان، ولم يستطع أحد أن يدعى أنه فعل هذا، فلو أن هناك إلها آخر فإما أن يكون قد عُرف، وفى هذه الحالة كان لابد أن يتكلم ويخبرنا أنه خلق، وإما أن يكون قد جهل هذا وفى هذه الحالة تسقط عنه صفة الألوهية؛ ولذلك فإن قضية وحدانية اللّه سبحانه وتعالى محسومة تماماً لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى قال: إنه خلق وأوجد، ولم تأت قوة أخرى لتقول إنها خلقت وأوجدت، ولا تستطيع أى قوة أخرى أن تدعى ذلك؛ فلذلك فالقضية محسومة فى أنه إله واحد لا شريك له، هو اللّه سبحانه وتعالى ولا تحتاج إلى مزيد من المناقشة.

وإذا توصلنا إلى هذه الحقيقة وهى أقصى ما يستطيع العقل أن يصل إليه فإننا فى هذه الحالة محتاجون لأن نعرف ماذا يريد اللّه منا فى هذا الكون؟ وكيف نعبده ونتقرب إليه ونشكره على هذه النعم التى سخرها لنا والتى لا يستطيع أحد أن يدعى أنه قام بتسخيرها؟

من الذى يحدد الطريقة التى نعبد الله بها ونتقرب إليه ونشكره على نعمه؟

لا شك أن الذى يحدد ذلك هو الخالق والمعبود، وهو الذى يقول يا عبدى إذا أردت أن تعبدنى وتتقرب إلى فافعل كذا ولا تفعل كذا، فهو وحده الذى يستطيع أن يحدد، ومن هنا كانت حتمية الرسل بشرا اختارهم الله سبحانه وتعالى وأوحى إليهم بما يريده من منهج العبادة فى الأرض، وأن يبلغوا عباده كيف يتقربون إليه ويشكرونه على نعمه ويؤدون حق الألوهية له.

ومن هنا جاءت الرسل لتبلغ عن الله سبحانه وتعالى منهج العبادة الذى اختاره وارتضاه لخلقه وحتى يصدق الناس أن الرسل قد اختارهم الله سبحانه وتعالى لتبلغ منهجه إلى الناس أيدها بمعجزات تخرق قوانين الكون ونواميسه وحفظها لتبلغ رسالته، فجعل لكل نبى معجزة لا يقدر عليها غيره من البشر، وجعل هذه المعجزة دليلاً على صدق الرسالة، ووضع فيها من القوة والقدرة مالا يستطيع إنسان أن يدعيه، فلم تحرق النار إبراهيم ولا يستطيع أحد أن يسلب من النار خاصية الحرق إلا الله سبحانه وتعالى، وانشق البحر لموسى ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، وأحيا عيسى الموتى بإذن الله وكانت معجزة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم هى القرآن الكريم الذى وضع فيه الله سبحانه وتعالى إعجازا متجدداً إلى يوم القيامة يفيض على كل جيل بمعجزات لم يعطها للجيل الذى قبله.

الأمثال.. تقريب الغيب

اقتضت قدرة الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض وتسخيرها للإنسان، اقتضت كما اقتضت رحمته سبحانه أن يضرب فى منهجه الأمثال ليقرب إلى عقولنا المحدودة ما هو غيب عنا؛ ذلك أن هناك أشياء حسية أطلعنا الله عليها وجعلنا نحسها ونراها وأشياء أخرى اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تظل غيبا عنا كاختبار وامتحان إيمانى؛ لذلك لم يطلعنا عليها وإن أخبرنا بها، وكان يجب على العقل البشرى أنه ما دام قد وصل إلى اليقين بالله سبحانه وتعالى فيكفى أن الله قال، فيصبح ذلك قضية إيمانية، ولكن الله سبحانه وتعالى علم أنه سيأتى مضللون وأن هؤلاء المضللين تؤيدهم شياطين الإنس والجن سيحاولون أن يهزوا الإيمان فى القلوب وأن يشككوا الناس فى عقيدتهم ولا مجال فى ذلك إلا فى استخدام ما هو غيب لا نستطيع أن نراه أو نلمسه؛ ذلك أن الرؤية عين اليقين فما دمت أنا أراك أمامى فلست محتاجا إلى دليل آخر يقول لى إنك موجود معى فى الحجرة، ولكن إذا كنت لا أراك فإنى أبحث عن دليل كأن أسمع صوتك أو أحس بحركتك إلى آخر هذه الأدلة المحسوسة.

هنا يأتى المضللون يحاولون التشكيك ليس فيما نراه ولكن فيما لا نراه ومن هنا يبدأ حديثهم محاولين أن يصلوا إلى ستر هذه الحقائق المخفية عن النفس البشرية أو إنكارها، ورحمة من الله سبحانه وتعالى للعقل البشرى، ورحمة بالمؤمنين ضرب هذه الأمثال ليقرب ما هو غيب عنا بشىء محسوس لنا ولا يقربه بالمِثال - بكسر الميم - بل يقرب الفكرة نفسها بالمَثل - بفتح الميم - .

فالله مثلاً لا زمن عنده، الأحداث عنده سبحانه وتعالى لا تخضع للزمن ولا لأية قيود، ولكن لأن الإنسان يحكمه الزمن فكل مقاييس حياته منذ ولادته حتى مماته محسوبة بالزمن فهو يكبر بمرور الوقت، وهو لا يفعل شيئا إلا ولابد أن يستغرقه زمن معين طال أو قصر، وهو محدود بهذا الزمن؛ ولذلك فعقله لا يستطيع أن يتصور أو يتخيل أن هناك أحداثا غير محكومة بالزمن.

والزمن مخلوق لله سبحانه وتعالى؛ أى إن الله هو الذى خلق الزمن، دوران الأرض حول نفسها من خلق الله، وهو الذى جعل العام اثنى عشر شهرا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦].

إذن . . فالزمن مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، والمخلوق لا يتحكم فى الخالق، بل الخالق هو الذى يتحكم فى المخلوق؛ يشكله كيف يريد أو يجعله عدما بعد خلق، فتلك قدرات الخالق جل جلاله.

يأتى الله سبحانه وتعالى فيقول فى كتابه العزيز: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

ويقول ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] ولا يحدده بزمن إلا أنه يوم.

ويقول العقل البشرى هل اليوم ألف سنة أو خمسين ألف سنة أم ما هو اليوم عند الله؟ إن اليوم الذى تعرفه من شروق شمس إلى شروق شمس أخرى، أو من غروب شمس إلى غروب شمس مرة أخرى، ذلك اليوم تعرفه، فما هو اليوم عند الله تبارك وتعالى؟

إن هذا الاختلاف فى زمن اليوم يفتح أمام العقل البشرى ويقرب إليه معنى نسبية الزمن؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لا زمن عنده، وأنه هو الذى يخلق الزمن فإن أراد أن يخلق يوما مقداره ألف سنة، قال له: ﴿ كُن ﴾ فيكون، وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره خمسين ألف سنة، قال له: ﴿ كُن ﴾ فيكون، وإذا أراد أن يخلق يوما مقداره مليون سنة، قال له: ﴿ كُن ﴾ فيكون، وإذا أراد أن يخلق يوما كيوم الدين يعلم الله سبحانه وتعالى وحده متى زمن هذا اليوم قال له: ﴿ كُن ﴾ فيكون، وهكذا فإن الله قادر على أن يخلق يوما واحدا يساوى خمسين ألف سنة مما نحسب نحن ونعد، وإن أراد أكثر من ذلك أو أقل قال: ﴿ كُن ﴾ فيكون.

إذن . . فمقاييس الزمن لا تحكم الله سبحانه وتعالى، ولكنه هو الذى يحدد مقاييس الزمن وما دامت مقاييس الزمن غير موجودة ولا تحد من قدرة الله فالله يستطيع أن يخلق يوما مقداره ٢٤ ساعة، وأن يخلق يوما مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة، أو مائة ألف سنة، أو مليون سنة فهو الذى يخلق ويختار.

فإذا قال الله سبحانه وتعالى يوم الدين؛ فهو الذى يملك كل هذا اليوم بكل خصائصه وبدون أى مقاييس بشرية، يحدد بدايته ونهايته فيستطيع أن يجعله لحظة ويستطيع أن يجعله ملايين السنين مما نحسب نحن.

إذن . . هذا الخلاف أو الاختلاف الذى ساقه الله سبحانه وتعالى فى زمن اليوم إنما أراد أن يقرب به إلى عقولنا كيف أن الله سبحانه وتعالى لا زمن عنده.

الأمثال.. ورحمة الخالق بالمخلوق

نأتى بعد ذلك إلى الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى، فنجدها جميعا فيها رحمة لعباد الله؛ فهى تحاول أن تقرب إليهم ما هو غيب عن العقل البشرى لا يستطيع أن يصل إليه وهى تقرب إلى عقولنا الجزاء الذى يعطيه الله لنا سبحانه وتعالى فى الآخرة، سواء كان هذا الجزاء عقابا أو ثوابا، وهى تقرب إلينا معنى الحياة كلها منذ بدء الخلق حتى نهايته، وهى تلفتنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فى غير ما نراه حتى نعرف يقينا أن الله الذى خلق الناس جميعا وأعطاهم حقا متساويا بدافع عن كل خلقه بالقدر والتساوى نفسه وهو كما يحمى حقوقنا من غيرنا، يحمى حقوق غيرنا منا، وهو يلفتنا إلى حق الفقير والضعيف وكبير السن والوالدين وكل هؤلاء الناس علينا حتى تكون حركتنا فى الحياة حركة صحيحة، ثم بعد ذلك يعطينا الأمثال عن مواكب الإيمان وكيف تتم، والمهلكات فى الدنيا وكيف تحدث، وما هو ظاهرها وباطنها؛ كل ذلك بأسلوب يجعل الفكرة تدخل إلى عقولنا لنفهمها بمقاييس عالمنا المحس، ولو أن القدرة هنا مختلفة والقوة مختلفة؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء ولا بد فى كل حدث أن ننسب الفعل إلى الفاعل أو إلى قدرة الفاعل، فلكل إنسان قدرات متفاوتة، فإذا قال لك أغنى أهل الأرض إنه سيعطيك منحة، وقال لك أفقرهم إنه سيعطيك منحة فكلاهما استخدم اللفظ نفسه، وهو كلمة «منحة» ولكن هل تساوى اللفظ فى المعنى؟

نجد هنا أن اللفظ رغم أنه واحد إلا أن هناك تفاوتا كبيرا فى المعنى، ما الذى أوجد هذا التفاوت؟ نسبة الفعل إلى الفاعل؛ ذلك هو التفاوت الذى جعل اللفظ مختلفا تماما، فأفقر أهل الأرض قد يعطيك قطعة صغيرة من الخبز أو شق تمرة، وأغنى أهل الأرض قد يعطيك ملايين الجنيهات، كلاهما منح؛ ولكن هل تساوت المنحة أم أنه هناك تفاوت كبير لأن الفاعل مختلف.

فإذا نقلنا القدرة إلى الله سبحانه وتعالى الذى ليس كمثله شىء، إذا قال الله سأمتعك، وقال لك أحد أهل الأرض سأمتعك، فاللفظ واحد، ولكن هل المعنى واحد؟ أبدا.

المعنى الأول ينسب إلى قدرة الله الذى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] فيكون المتاع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب البشر(١)، أما الفعل

(١) سبق تخريجه.

الثاني فيكون على قدرات البشر المحدودة وهو المخلوق الضعيف فما يستطيع أن يقدمه هو لا شيء بجانب ما تستطيع أن تعطيه قدرة الله سبحانه وتعالى.

إذن.. فالأمثال التى يضربها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم تقرب المعنى فقط، وتجعله محسوساً للناس حتى إذا جاء ضال وقال إن هذا الكلام فوق قدرة العقل وحاول أن يشكك فيه، نقول له إن الله سبحانه وتعالى رحمة بي قد ضرب لى مثلا يقرب المعنى، والأمثلة التى يضربها الله سبحانه وتعالى قد تكون فى القرآن وقد تكون فى الحياة نفسها، فمثلاً ما قاله الله عن خلق الإنسان وأطوار هذا الخلق من تراب ثم من صلصال ثم من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه.

يأتى المضلون ليجادلوا فى هذا مع أنهم لم يشهدوا الخلق ويحاولوا أن يشككوا فى القرآن الكريم، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل فى الحياة قضية محسوسة وهى الموت لترد عليهم وعلى إضلالهم، فالموت نقض للحياة، والشيء الذى ينقض أول ما ينقض فيه هو آخر ما تم فيه، فالعمارة يبدأ هدمها من آخر طابق ارتفع إليه البناء، وأنت حين تذهب إلى الاسكندرية مثلا وتريد أن تعود مرة أخرى فإن أول خطوة فى العودة هى آخر خطوة فى الذهاب.

فلننظر ماذا يحدث فى الموت وهو نقض للحياة؛ أول ما يخرج من الإنسان هو الروح أو النفس وهو آخر ما دخل فيه هذه النفخة تتوقف، فيكون هذا أول نقض للحياة ثم يتصلب الجسم وهذا هو الحمأ المسنون، ثم يتعفن بعد ذلك ويصبح طريا كالصلصال، ثم يصير ترابا ويعود إلى الأرض، هذا هو نقض الحياة. أمر محسوس لنا يأتى عكس بناء الحياة وهو أمر غيبى عنا؛ وهكذا شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تجعل الموت مثلاً محسوسا عما هو غيب عنا وهو خلق الحياة.

على أن الله سبحانه وتعالى قد ضرب لنا الأمثال وسمع الأمثال التى يضربها الناس برسول الله محاولين التشكيك فى الإيمان فرد عليها، وهذه الأمثال رغم أنه قد مر عليها أكثر من ١٤٠٠ سنة فما زالت كما هى تستخدم فى الإضلال.

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس].

وهكذا أراد الإنسان العاجز وغير القادر على أن يضرب مثلا لله القادر سبحانه وتعالى فتساءل عمن يحيى العظام وهى رميم بعد أن تصبح ترابا، ورد الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن المعجزة أمامكم فهذه العظام أين كانت قبل أن توجد وتخلق؟ كانت ترابا مثلما هى الآن. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقها من التراب ألا تستطيع قدرته أن تعيد خلقها مرة أخرى من التراب علما بأن إعادة الشيء أسهل من عمله أول مرة وإن كانت قدرة الله لا تعرف الصعب ولا السهل.

على أننا لابد أن نفطن إلى أن الله سبحانه وتعالى حين يضرب الأمثال فى القرآن الكريم يأتى بالأمور مجتمعة ولا يأتى بها فرادى.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

إذن.. فهو قد جاء بالأمر جامعا ولم يأت به فرادى، فلم يبدأ بأن الناس جمعوا الحطب ثم ذهبوا إلى مكان كذا ثم أشعلوا النيران، بل جاء به مكتملاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

كأنه جاء بالحياة كلها مجتمعة ولم يأت بتفصيلها، ولكن جاء بها من أولها إلى آخرها وهو يريد أن يضرب مثلاً حالة بحالة بدون الدخول فى تفاصيل.

كما يلاحظ فى الأمثال أنها تأتى مطلقة بمعنى أنها لا تنطبق على حالة معينة، أو زمن معين أو أفراد معينين حتى الأفراد الذين يضرب الله المثل بهم لا يأتى بذكر أسمائهم لماذا؟ لأنه ليس المقصود الفرد ولا الحالة بعينها، بل إن هذه الأمثال تتكرر فى الدنيا وفى كل العصور والذى قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨]. موجود منه الألوف فى هذا العصر، وفرعون الذى يطغى ويستبد ويريد أن يعبد فى الأرض موجود منه عشرات من الحكام الذين ينصبون أنفسهم آلهة، والذين يستبدون ويعذبون الناس ويملأون السجون والمعتقلات، وغيرهم من الأمثال التى ضربها الله سبحانه وتعالى كمثل صاحب الجنتين الذى كان مزهوا بما يملك وأصحاب الجنة الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [القلم]، والذين حاولوا أن يأكلوا حق الفقير واليتيم والمسكين فيما أعطاهم الله من مال وفيما أعطاهم من رزق، والكفار الذين يحاولون أن يضلوا الناس بغير علم ويزينوا لهم السوء؛ كل هؤلاء وغيرهم ممن ضرب الله بهم مثلاً فى القرآن الكريم تتكرر قصصهم فى كل عصر وتجدهم فى كل زمن، بل إن أولئك الكفار الذين يقولون: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤]. ويحاولون إنكار وجود الله هم أيضا موجودون بالحجج والأمثال التي قيلت نفسها.

والأمثال فى القرآن الكريم فيها تحدٍ للبشرية كلها مثل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وفى هذا يتحدى الله سبحانه وتعالى البشرية كلها بالعلم الذى سيحققونه؛ إنهم لن

يصلوا إلى خلق ذبابة ولا إلى استرجاع ما يأخذه الذباب من طعامهم أو شرابهم، وهذا دليل على ضعفهم، على أن هذا التحدى فى خلق أضعف المخلوقات وهى الذبابة يريد اللّه أن يؤكد به أن البشرية قد تصل إلى القمر وإلى المريخ، ولكنها لن تستطيع أن تصل إلى سر خلق الحياة أو المادة الحية، فهى ستظل عاجزة على مر السنين عن ذلك.

كذلك ضرب اللّه تعالى الأمثال فى دقة الخلق بالنسبة لخلق البعوضة وما فوقها أى ما هو أدق منها.

إلى هنا نكون قد بينا أن اللّه سبحانه وتعالى بضربه الأمثال فى القرآن الكريم يريد أن يقرب إلى الذهن البشرى أشياء هى غيب عنه، وأن يجعل فكرة هذه الأشياء قريبة بدون أن يطلع الإنسان عليها، أو يكون التشبيه بالمثل، وأنه فى هذه الأمثال التى تناولت ستر وجود اللّه ومصير المكذبين والجنة التى وعد بها المتقون ومواكب الرسل ومواكب الإيمان، إنما قد تناولت أمثالاً لا يتكرر حدوثها فى كل عصر لتظل الموعظة دائمة، كما تناولت تقريب المفاهيم ليمكن الرد على ادعاءات المضلين، واللّه سبحانه وتعالى قد لمس بهذه الأمثال جوانب كثيرة من حياة البشر.

ومن الأمثال التى ضربها اللّه فى القرآن الكريم مثل يمثل مواكب الرسل وبشرية الرسُول، والتكذيب الذى يقابل به، وكيف أن المكذبين لا يكتفون بإنكار رسالة الرسُول وعدم الإيمان بها، بل يحاولون إيذاءه هو والمؤمنين، وكيف تسير مواكب الإيمان بعد ذلك؟ وكيف يقابلها هؤلاء المكذبون؟ هذا المثل الذى ضربه اللّه سبحانه وتعالى ينطبق على مواكب الرسل منذ بداية الرسالات السماوية وحتى نهاية الدنيا.

أصحاب القرية.. وعداوة الرسل

نبدأ بالمثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل والرسالات، وكيف يقابلها أهل الأرض، والمثل الذى ضربه الله حول هذه القضية لا يزال يعيش بيننا حتى الآن بالرغم من انتهاء الرسالات وما زال الجدل نفسه الذى أنبأنا الله عنه نسمعه وكأنما كان الله سبحانه وتعالى يريد أن يحصننا ضد هذا الجدل وضد الذين يضلون عن سبيله وأعطانا المثل عنهم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝ ﴾ [يس].

نتوقف عند هذه الآية لنشرح الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله لموكب الرسالات.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

ولم يقل تبارك وتعالى أية قرية، ومن هنا فإن هذا المثل ينطبق على كل قرية أو كل جماعة من الناس تسكن قطعة من الأرض فيها نعمة من نعم الله يتمتعون بها ويقيمون عليها حياتهم.

لماذا قال الله: ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ ولم يقل أهل القرية؟ لأن الذين يقاومون رسالات السماء ويحاربون الرسل هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا فى الحياة الدنيا وأعطاهم الله الجاه والملك، وفي غالب الأمر يكون باقى الناس تبعا لهؤلاء، إما خشية من نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم، أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا، ولو علم هؤلاء الناس الحقيقة وآمنوا بأن الرزق بيد الله، وأن أصحاب النفوذ لا يملكون لهم نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله لتغيرت الصورة تماما، ولكن الناس تأخذ بظاهر الأشياء وتعتقد أن صاحب النفوذ يستطيع أن يمنح ويمنع ويمكن أن يعطى ويأخذ ورغم أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال في الحياة فيصبح صاحب النفوذ والسلطان بين يوم وليلة وقد زال عنه كل شيء يهرب من مكان إلى آخر محاولا إنقاذ حياته، لو تأمل الناس هذا لعرفوا أن الذى لا يستطيع أن يحمى نفسه ويبقى

النعم التى يتمتع بها لا يستطيع أن يحمى أحدا أو يهبه شيئا، وإلا لكان من الأولى أن يهب لنفسه ملكا لا يزول ونفوذا لا ينمحى، ولكن لأن الدنيا تمضى بالأسباب فيجعل الله سبحانه وتعالى إنسانا سببا فى أن يجرى الله نعمته على إنسان آخر، ولكن المنعم عليه ينسى المنعم الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى ولا يتذكر إلا الأسباب التى أعطته وظاهر الشىء الذى أمامه فيعتقد أن فلانا يستطيع أن يمنح ويمنع والحقيقة أن الله يجرى على يد من يشاء من عباده هذه النعم، وأنه لولا مشيئة الله ما أخذ أحد شيئاً.

ومن هنا فإن المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الفضل لله سبحانه وتعالى أولاً؛ لأنه يعرف أنه المنعم الحقيقى وغير المؤمن إذا جاءته نعمة نسب الشىء للإنسان لأنه لا يؤمن بالله.

ومن هنا جاء المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بلفظ ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ على أساس أن هؤلاء هم الذين يكذبون الرسل ويؤذونهم ويحاولون بما أتاهم الله من نعمة أن يبارزوا الله بالمعاصى.

لكن لماذا يحارب هؤلاء الذين أترفوا فى الدنيا، لماذا يحاربون الرسل؟ الجواب على ذلك أنهم يخشون على نفوذهم وسلطانهم من الحق ومن رسالات السماء ذلك أن هؤلاء الناس أقوياء بحكم ما هم فيه وهم فى قوتهم يظلمون ويأكلون الحقوق بالباطل، ويفعلون ما يريدون دون ما مراعاة لحق الضعفاء وهم يتخذونهم عبيدا، أو يجعلونهم يعملون من أجلهم ولا يعطونهم حقوقهم أو أجورهم أو يقننوا لأنفسهم أشياء تميزهم عن بقية أهل القرية بحجة السيادة أو حقوق الحكم إلى آخر ذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يعرف صاحب نفوذ ولا يحابى أحدا؛ فهو العدل المطلق يعدل بين الناس جميعا، والرسالات السماوية أساسها حماية الضعيف من القوى وغير القادر من القادر ذلك أن القوى و القادر يستطيعان أن يصلا إلى حقوقهما وأن يجورا على حقوق غيرهما من الضعفاء، ومن هنا فإن الرسالات السماوية تحرس حق الضعيف وتعيده إليه، وتجعل الناس متساوين لا فرق بين أحد وأحد، تجعل الاعتداء على حقوق أضعف الضعفاء كالاعتداء على حقوق أقوى الأقوياء كلاهما جريمة لها عقاب، والعقاب متساو لا ينظر إلى نفوذ أحد، ولا إلى مركزه، ولا إلى مقامه، وإنما ينظر إلى الجريمة نفسها؛ ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما جاءوه يتشفعون فى امرأة من عائلة شريفة سرقت ويريدون ألا يقيم عليها الحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف منهم أقاموا عليه الحد، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها»[(١)].

---

(١) روى البخارى [٦٧٨٨] عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

هذه هي رسالات السماء التي لا تميز بين شريف وضعيف، وتحاسب الناس بأعمالهم وليس بأنسابهم ولا بنفوذهم ولا بأموالهم. ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السماء ويحاول أن يكذبها هم أصحاب الجاه والنفوذ والمال والسلطان؛ لأنها ستجرد هؤلاء من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها وستجعلهم مساوين للضعفاء في الحقوق والواجبات، وستقتص للضعيف من القوي، فإذا رأوا أن ذلك هو زوال لنفوذهم وذهاب لسلطانهم، كانوا أول مكذب للمحافظة على جاه الدنيا وزخرفها.

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا في أول المثل إلى أن الذين يقفون موقفا معاديا من رسالات السماء، هم أصحاب النفوذ والسلطان والترف.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ ﴾ [يس].

كأن الله سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أنه قد أرسل إلى بني آدم أكثر من رسول، وذلك ليعلم الناس أن هناك موكب رسالات، أولئك الذين عاشوا في الأيام الأولى يعرفون أن هناك رسلا ستأتي بعدهم، أولئك الذين يعيشون بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه كان هناك موكب للرسل انتهى بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وقد أنبأ الله في القرآن عن الرسل السابقين وذلك من رحمة الله بعباده أنه لم يرسل رسولا واحدا فقط، لماذا؟ لأنه لو أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا في أول البشرية بتعاليم من الله ثم بعد ذلك تعاقبت الأجيال وأخفى كل جيل جزءا من رسالة الله لضاعت الصورة كلها ولجئنا يوم القيامة مجادلين بأن ما وصلنا عن الله سبحانه وتعالى هو غير ما أراده الله، وهنا لا يكون الحساب عدلاً، ولكن الله سبحانه وتعالى أرسل مواكب الرسل لتبين وتظهر ما حرف في الرسالات السابقة وما أخفي عن الناس وما نسي بقدم العهد، كل رسول يعالج الداءات التي حدثت والانحراف عن منهج الله الذي تم، وكان هناك أكثر من رسول في وقت واحد كإبراهيم ولوط عليهما السلام.

ثم حين جاء القرآن تعهده الله تبارك وتعالى بالحفظ فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وهكذا فإن الحافظ على القرآن الكريم حافظ من الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهكذا كانت خاتمة الرسالات يحفظها الله، تصل إلى البشر وليس فيها إخفاء، وقد يتساءل البعض لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى الذكر من عهد آدم مرة واحدة ويحفظه الله من أول الخلق إلى يوم القيامة؟

نقول إن الدنيا في أولها كانت مجتمعات صغيرة متباعدة قد يعيش مجتمع منها ويفنى من دون أن يعرف شيئاً عن المجتمع الآخر؛ ولذلك كانت الداءات مختلفة اقتضت

رسولا إلى كل أمة ليعالج داء انتشر فيها حتى أن الأمر اقتضى كما قلنا أن يكون هناك أكثر من رسول في وقت واحد، ثم تقدم العالم وزالت بينه فوارق الزمن والمكان بحيث أصبح ما يحدث فى مكان يصل إلى المكان الآخر فى أيام ثم فى ساعات ثم تقدم الزمن وأصبح ما يحدث فى أى مكان يصل إلى العالم كله فى دقائق معدودة، وهكذا توحدت الداءات وأصبحت وحدة المعالجة ضرورية فنزل القرآن الكريم ليعالج قضية موحدة هى قضية البشرية كلها، نزل للناس كافة؛ لأن الداءت قد توحدت وأصبح لابد من وحدة المعالجة.

على أن الرسالات السماوية في جوهرها ودعوتها للتوحيد واحدة، وإن اختلفت فى أحكام أخرى بما يلائم تطور الزمن فإنه يجمعها جميعا أنه لا إله إلا الله، وأن المعبود الحق هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

قبل أن نمضى فى شرح المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى، لابد أن نشرح لماذا جاءت الرسل؟ ولقد بينا فى الفصل السابق أن الرسل أساسا قد جاءت لتبلغ منهج الله فى أفعل ولا تفعل، وأن الإنسان يستطيع أن يهتدى بعقله إلى أن هناك خالقا للكون كله هو الله سبحانه وتعالى، ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هى مرادات الله من خلقه، ولا كيف نعبد الله أو كيف نشكره على نعمه.

والله يبين ذلك فى القرآن الكريم فيقول فى سورة إبراهيم: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

إذن.. فأساس الرسالات السماوية هى الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، الرحمة بخلقه وعباده الخطائين، وكل ابن آدم خطاء، والله سبحانه وتعالى خلقنا ليمتعنا بالجنة، وينعمنا نعيما أبديا على حسب قدراته هو سبحانه وتعالى وهذا تكريم لبنى آدم وأراد أن يجعل الدنيا اختبارا لحب الله فى قلوبنا فمن أحب الله وأخلص له فاز بالجنة ومن عصى الله وخالفه واستهان بأوامره عاقبه الله سبحانه وتعالى بالنار ولقد وضع الله للحياة الدنيا دستورا فيه صلاح البشر ولا يوجد من هو أعلم من الله بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان. فالله هو صانعنا وصانع كل شيء، هو الأدرى بهذا الكون والأعلم بما يفسده ويصلحه.

ولقد خلقنا الله مختارين، قادرين على المعصية، وقادرين على العبادة؛ لأنه أرادنا أن نأتيه عن حب واختيار لا عن قهر كالمخلوقات التى خلقها الله سبحانه وتعالى مقهورة على طاعته كالملائكة؛ ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى عنا القهر والإكراه فمن أتى بعمل للخير وهو مكره ومجبر ومقهور، بينما هو فى حقيقة نفسه لا يريد أن يعمل هذا الخير فلا يثاب عليه، ومن أكره على عمل سوء، وهو يريد خيرا لا يعاقب عليه مصداقا لقوله سبحانه و تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣].

إذن.. أساس الرسالات هو دعوة من الله سبحانه وتعالى للبشر؛ لأن يمتعهم فى الآخرة خالدين فيها متمتعين بنعم لا تزول، تأتى إليهم بمجرد أن تجول فى خاطرهم، وكل ما هو مطلوب من الإنسان هو أن يتبع منهج الله الذى يعطيه الحياة الطيبة فى الدنيا و الآخرة وجاءت الرسل لتبشر خلق الله برحمة الله سبحانه وتعالى و إنعامه عليهم، وهو بعد أن خلق لهم النعم فى الدنيا ثم خلقهم فيها زاد فضلا على فضل بأن خلق لهم الجنة لينعموا بها فى الآخرة ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

يدل على أن منهج الله هو رحمة بعباده وخلقه، ودعوة للتمتع الحقيقى بنعم الله فى الدنيا والآخرة.

ومن رحمة الله أيضا أن منهجه هو تثبيت للإنسان فى حياته الدنيوية؛ ذلك أن الله قد خلق الدنيا و خلق لها أسبابها التى تعمل بها، ولكن هذة الأسباب ليست قيدا على المسبب ولا تعمل بذاتها، أو تعطى بذاتها وإنما تعمل وتعطى بإرادة الله الذى له طلاقة القدرة التى هى موجودة ونراها جميعا فى ضعيف ينصره الله على قوى، وفى مظلوم ينصره الله على ظالم، وفى أحداث فى الدنيا لا تمضى بالأسباب فكلمة «ربنا موجود» أو «ربنا كبير» أو «ربك يمهل ولا يهمل»كلها كلمات رددها كل واحد منا فى حياته، وهذه الكلمات لا تقال إلا إذا ظهرت طلاقة القدرة فى حدث مر بنا؛ ذلك أنه إذا انتصر قوى على ضعيف فتلك لا تتطلب منا أن نتذكر قدرة الله ونقول «ربنا موجود»، ولكننا لا نقول هذه الكلمة إلا إذا تعطلت الأسباب وصارت إرادة المسبب عكس ما تعطيه الأسباب، ومن هنا فإننا نصيح من أعماقنا لإننا نرى قدرة الله مجسدة أمامنا فى حدث من الأحداث.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت عباده المؤمنين، ومن هنا فإن رسالات السماء تأتى لتؤكد أنه إذا عزت الأسباب على المؤمن فإنه يرفع يديه إلى السماء ويصيح يا رب، لأنه يعلم أنه إذا كانت الأسباب لا تعطيه فإن المسبب قادر أن يعطيه بدون الأسباب، ولذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٧٨].

وما الذى يحدث عادة حين تضيق الأسباب بالناس، وتغلق الدنيا أبوابها فى وجوههم، الكافر وغير المؤمن بالله يصيبه يأس قاتل ينتهى به إما إلى الجنون أو إلى الانتحار، ولكن المؤمن يظل ثابتا لا تزعزعه الأحداث، بل يرفع يديه إلى السماء ويقول «يا رب» وهو مؤمن بأن الله سيجعل له مخرجا.

وهكذا جاءت رسالات السماء لتثبت الذين آمنوا فى الحياة الدنيا، وتبشرهم بالجزاء العظيم الذى ينتظرهم فى الآخرة برحمة من الله حتى يحيوا حياتهم فى الدنيا وهم مرفوعو

الرأس بلا ذل لأحد، ويحيوا فى حياتهم الآخرة وهم فى نعيم مقيم لا يفارقهم أبدا، هذا جزاء المؤمنين إن أحبوا الله وعبدوه.

والجزاء هنا على قدرات الله وليس على قدرات البشر، والله سبحانه وتعالى لا يطلب منهم رزقا ولا مالا وإنما يطالبهم بالعدل والإصلاح والصلاح؛ إذن فالرسل جاءوا مبلغين لمنهج الله مبشرين من أطاعوه، منذرين من عصوه، مثبتين الذين آمنوا أمام أحداث الدنيا وتقلباتها.

وتمضى الآية الكريمة وهى تورد حجج الكافرين منذ يوم القيامة وحتى هذه الساعة تقول الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وهذه الحجة حجة تكذيب الرسُول لأنه بشر استخدمها الكفار من عهد نوح ويستخدمونها حتى الآن محاولين بذلك أن يصلوا ببشرية الرسُول إلى أن الله سبحانه وتعالى لم ينزل شيئاً حتى أننا فى هذه الأيام لا نزال نسمع من يقول إن محمداً كان بشرا يصيب ويخطئ وأن قوله يؤخذ ويترك بل إن أساس طعن المستشرقين فى القرآن هو محاولاتهم كذبا وافتراء أنه قول بشر، مع أن قضية بشرية الرسُول قضية حتمية ولو لم يكن بشرا لكان ملكا، أو مخلوقا من أى نوع آخر ولوجد من يطعن فى الرسالة وسنبين هذا بالتفصيل.

رسالة الله سبحانه وتعالى هى للبشر ورسالة الله هى منهج لابد أن يطبق أمام الناس حتى يتبعوه، وأن يكون هذا التطبيق صحيحا بواسطة بشر يوحى إليه محروس من الله سبحانه وتعالى مؤتمن على تبليغ الرسالة، ومن هنا فإن الرسُول الذى يأتى بمنهج السماء بلاغا عن الله إنما يطبق هذا المنهج على نفسه أولا، ولا يجعل أحكام المنهج تعطيه ميزة عن باقى المؤمنين؛ ولذلك إذا أردت أن تعرف هل هذا منهج حق أو منهج باطل فانظر إلى مبلغه أو من يقدمه لك؛ فإن رأيت أنه حقق ميزات لنفسه وجعل نفسه مميزا عن باقى الذين معه فاعلم انه منهج بشرى وضعه صاحبه ليحقق ميزات ومكاسب لنفسه وإن رأيت أن هذا المنهج لا يحقق أى ميزة لصاحبه بل يساوى بين الناس جميعا ويتحمل صاحبه المشقة من أجله فاعلم أنه منهج حق؛ ذلك أن مناهج وقوانين البشر الأساس فيها أنها تحقق ميزات لمن وضعوها أو للقائمين عليها فذلك هو سبيل المنهج البشرى يبيح لمن يضعه ما يحظره على الناس جميعا، أما منهج السماء فإن أول من يتبعه هو الرسُول ولا يأتى أبدا بشىء يخالفه ولا يحقق لنفسه ميزة فوق المؤمنين.

إذن.. فالرسول بشر جاء مبلغا بمنهج السماء، وحياته هى التطبيق لهذا المنهج وهنا تكون بشرية الرسُول حتمية لماذا؟ لأنه لو أرسل الله ملكا لقال الناس يا رب هذا ملك مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين له قدرات فوق قدراتنا، ولكن كون الرسُول بشرا وكونه من بين قومه وكونه يطبق المنهج يسقط حجة هؤلاء جميعا.

إذن.. فبشرية الرسُول محتمة حتى لا يقول الناس إن هذا المنهج موضوع لملك له فوق قدراتنا، أو موضوع لمخلوق يتميز عنا في القدرات والخلق، ولكن الله أتى ببشر اختاره من بين قومه حتى يكون شهيدا عليهم يوم القيامة فإن قالوا حجتنا أن المنهج كلفنا ما لا تطيق كانت هذه الحجة مردودا عليها بأن هذا المنهج طبقه بشر مثلكم ولم يتحمل فوق ما يطيق، وكان مثلا لكم لابد أن تحتذوا به، ومن هنا فإن عدم بشرية الرسُول تكون حجة على الرسالة وليست حجة لها، ومجالا للطعن في عدم مناسبة التكليف للمكلف به، ولكن لكون الرسُول بشرا فذلك عين الحكمة لتقول إن هذا التكليف قام به بشر مثلنا ونحن قادرون على القيام به.

وكان أجدر بهؤلاء الكافرين أنه ما دام الرسُول بشرا وما دام في قدراته القيام بالتكليف كان الأجدر بهم أن يناقشوا التكليف نفسه، وكيف يدعو إلى الخير والرحمة وطيب الخلق والتسامح والتكامل وكل القيم العليا التي جاءت بها الرسالات السماوية، وحتى هذه اللحظة نجد أن من يثير نقطة بشرية الرسُول يحاول أن يدفع بها عن نفسه وغيره قراءة المنهج بالتقييم الصحيح وهو لأنه يحس أن هذا المنهج حق وأنه لا يستطيع أن يناقشه، يدفع القضية كلها محاولا إثارة قضية بشرية الرسُول ليتخذها حجة في أن يقول إنه ما دام بشرا يخطئ ويصيب فلن آخذ عنه، ولو أنه كان يريد النقاش حقيقة لناقش في هذا المنهج نفسه ولما هرب بإثارة هذه القضية الوهمية التي هي ضده وليست له، فبشرية الرسُول حتمية لتطبيق الرسالة على أساس أنها للبشر وليست لمن يملكون قدرات غير بشرية.

فإذا قرأت الآن عن من يثير قضية بشرية الرسُول فاعلم أنه لا يستطيع مناقشة منهج الله ولذلك فهو يحاول أن يهرب بكلام هو ضده وليس له.

وتمضي الآية الكريمة بعد أن ضربت لنا المثل بأن الكفار يستخدمون بشرية الرسُول في محاولة تكذيب الرسالات وإيهام الناس كذبا أنها ليست من عند الله تمضي الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [يس].

حينما كذب أصحاب القرية المرسلين التجأ المرسلون إلى الله سبحانه وتعالى يشهدونه فقالوا: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾.

أي إننا لا نكذب على الله في الرسالة التي جئنا بها، ولماذا نكذب إذا كنا لا نحقق ميزة، لو أننا جئنا بمنهج بشري نحقق به ميزة لكان أول شيء نفعله أن نحاول إرضاء أصحاب النفوذ والجاه ذلك لأن هؤلاء هم الذين يملكون أسباب فائدتنا ومن هنا فلا يعقل أن نكون قد جئنا برسالة بشرية نعادي بها هؤلاء الناس؛ لأن ذلك ضد منهج البشر وتصرف البشر، فالإنسان عادة إذا أراد فائدة دنيوية يبحث أين هؤلاء الذين يملكون هذه الفائدة الدنيوية، ثم يبدأ في نفاقهم ويضع المنهج الذي يعتقد أنه يرضيهم، أما إذا جاء بمنهج يغضبهم به لأنه ينتزع ميزاتهم ويحاول أن يساوي بينهم وبين غيرهم، فإنه في هذه

الحالة يتعرض لبطشهم بدلا من مكافأته منهم، وفى هذا يكون المنهج الذى أتى به منهج حق، وهؤلاء الرسل جاءوا بمنهج الحق وهم لا يحاولون أن يطبقوا ما أتوا به بالقوة و العنف، بل هم يبلغون رسالات اللّه، واللّه الذى خلق الإنسان مختارا أو متمتعا بحرية الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل يترك هذا الإنسان بعد أن تم إبلاغه برسالة ربه، يتركه بعد ذلك ولا يقهره اللّه سبحانه وتعالى - وهو قادر على ذلك - لا يقهره على الإيمان.

ولذلك يقول تعالى لرسوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

ويقول جل شأنه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولذلك فإنَّ مهمة الرسُول إبلاغ منهج اللّه للناس، والدعوة إلى اللّه بالقول والموعظة الحسنة ثم بعد ذلك من يدخل فى دين اللّه ويؤمن يجب أن يدخل وهو راغب فى الإيمان وهو مريد لهذا الإيمان.

وهنا نقطة لابد أن نتحدث عنها؛ ذلك أن عددا من المستشرقين يتهم الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف وأن الناس كانوا يخيرون بين الإيمان أو القتل، وأن الفتوحات الإسلامية هى التى نشرت الإسلام بالسيف وهذا قول يحمل بهتانا عظيما ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما وجد فى الدولة الإسلامية غير المسلمين، ولكن وجد فى الدولة الإسلامية اليهود و النصارى وظلوا على دينهم لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يدخلهم فى دين الإسلام قهرا، بل تركوا على دينهم وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة إلا فى ظل الدولة الإسلامية حتى أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون فى المغارات وقت الحكم الرومانى قد خرجوا إلى الآفاق فى أيام الحكم الإسلامى وكانوا يؤدون عبادتهم فى حماية الحكومة الإسلامية.

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتصر بالسيف قول كاذب، ولكن الإسلام استخدم السيف ليدافع عن حرية الكلمة وحرية العقيدة للبشرية كلها، فقد كان دعاة المسلمين يريدون أن يعرضوا الإسلام على الأمم فيشرحوا الدين الجديد للناس، وبعد إبلاغهم بالدين الجديد و الحجج التى نزل بها القرآن بعد ذلك من شاء آمن ومن لم يشأ ظل على دينه، وهكذا كان المسلمون يطالبون بحرية الرأى وحرية العقيدة، وأن يعرضوا الإسلام على الناس ومن له حجة - ولله الحجة البالغة - فليتقدم، ثم بعد ذلك يترك حرية العقيدة لكل إنسان.

ولكن حكام هذه الدول قتلوا دعاة المسلمين، ومنعوا المسلمين من أن يعرضوا دينهم على الناس وصادروا حرية الرأى وحرية العقيدة محاولين فرض دين الكفر وحملوا السيف؛ ليمنعوا الإسلام من أن يصل إلى قلوب وآذان البشر وكان لابد دفاعا عن حرية الرأى والعقيدة أن يحمل المسلمون السيف ليضمنوا للبشرية حرية الرأى وحرية العقيدة،

ويخلصوها من جبروت فرض الكفر والإلحاد على الناس بالقوة، وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذى يستطيعون فيه إبلاغ تعاليم الإسلام للناس تركوا السيف وألقوا به بعيدا وبدأوا فى شرح تعاليم الدين، ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حرا فى أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز، ومن بقى على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون.

إذن.. فالرسل حين استشهدت بالله قالت: ما علينا إلا البلاغ المبين؛ أى إن الله سبحانه وتعالى كلفنا بأن نبلغكم منهجه، فمتى أبلغناكم هذا المنهج، نكون قد أدينا رسالة الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يحاسبكم، ولكن هذا الكلام لا يعجب السادة والمترفين؛ الذين يريدون أن تكون العزة فى الدنيا لهم قهرا؛ بل إنه يؤرقهم لماذا؟ لأنهم يحسون فى داخلهم أن الرسل سيجذبون الناس بمنهج الله، وأن الإيمان القطرى للنفس البشرية يدفع هذه النفس إلى منهج الله، ويحس أتباعه بانسجام مع الكون وبالراحة والطمأنينة والسلام داخل النفس، كما أن هناك داخل نفس كل كافر ما يجعله يحس أن المؤمن أفضل منه، فهو يحاول أن يؤذيه ويتعمد أن يسخر منه، وكلما رآه يحاول أن يهينه وما هذه المحاولات كلها إلا لأن شيئاً داخله يجعله غير منسجم مع هذا الكون، وهو يريد أن يخرج المؤمن من إيمانه ليصبح الاثنان سواء.

وكان المفروض عندما أشهد الرسل وقالوا ما علينا إلا البلاغ المبين؛ أى البلاغ الظاهر المؤيد بالحجة كان المفروض أن يتركوهم وشأنهم، ولكنهم أبوا ذلك وأرادوا أن يتعرضوا للرسل بالإيذاء، ولكن الرسل لم يجبروهم على شىء قهرا فقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ ﴾ [يس: ١٨]؛ أى إنا قد تشاءمنا من وجودكم فى هذه القرية، فدعوتكم للإيمان قد أفسدت الناس علينا وجعلتهم بعد أن كانوا خاضعين لنا خضوعا كاملا ينظرون إلينا على أننا متساوون معهم وهذا ما لا نريده ولا نسمح به، ثم ازداد هؤلاء الكفار فى بغيهم على الرسل فقالوا لهم: ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أى إنهم أرادوا من الرسل أن يتركوا الدعوة لدين الله، وأن يتركوا هذه الدعوة وينضموا إليهم كما عرضوا على رسول الله وعرضوا على عمه أبى طالب إن أراد مالا جمعنا له المال، وإن أراد ملكا ملكناه علينا، محاولين بذلك أن يغروه لترك الرسالة والانضمام معهم إلى موكب الكفر.

وهكذا بدأ أصحاب القرية العداء وطالبوا رسل الله أن يتركوا الدعوة فلما فشلوا فى إغرائهم قالوا إذا لم تتركوا الدعوة للدين فإننا سنقتلكم رجما أو نعذبكم عذابا شديدا حتى تتركوه، وهكذا عندما فشل الإغراء لجأ الكفار إلى التهديد بأن حاولوا أن يجعلوا الرسل يتركون الدعوة، أو يتعرضون لإيذاء شديد وبذلك يكون العداء قد بدأ من الكفار، ويكونون بذلك هم الذين اتخذوا الخطوة الأولى فى العداوة لله، وهم الذين بدأوا فى محاربة دين الله الذى لم يحاول أحد أن يفرضه عليهم، ويكونون بذلك قد استحقوا عدلا

عقاب الله، لأنهم هم الذين بدأوا العداوة وبدأوا إيذاء الرسل الذين يدعون إلى الهداية وإلى الصراط المستقيم، ورد الرسل، فقالوا: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى إن هذا التشاؤم الذى تحملونه لنا هو من عند أنفسكم، هو من ذاتكم، فأنتم قوم تريدون أن تسرفوا فى الأرض، وأن تبغوا وأن تأخذوا حقوق غيركم غصبا وبالقهر فإذا سمعتم كلمة العدل ضاقت بها نفوسكم وملأها التشاؤم لأنها تمثل بداية النهاية بالنسبة للظلم الذى تحاولون أن تفرضوه على الناس وأن تجعلوه هو دستور الحياة بينما الله سبحانه وتعالى قد جعل دستور الحياة هو العدل.

والإسراف هنا هو إعطاء النفس البشرية كل شهواتها وإطلاق العنان لها لترتكب ما تريد وتشتهى بدون ضابط من عدل أو احترام لحقوق الناس و الله سبحانه وتعالى فى منهجه قال افعل ولا تفعل وفى قوله لا تفعل فقد قيد النفس البشرية من أن ترتكب ما تفسد به الحياة فى الكون وأن تعيش فى الحدود التى تضمن العدالة للجميع ذلك أننا كلنا عبيد لله، والله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية يعطيه لنا جميعا وهو لا يقبل العدوان ردًا للعدوان ولا يقبل الاعتداء بغير الحق ولكن النفس البشرية بطبيعتها تكره القيود وهى تريد أن تنطلق فى شهواتها وتسرف فيها دونما مراعاة لحق، وهذا الإسراف على النفس وليس لها لماذا؟ لأنها قد أخذت نفعا عاجلا ولم تنتبه إلى الجزاء الذى ينتظرها فى الآخرة ذلك الجزاء الذى يؤدى بها إلى الهلاك ومن هنا فهى لم تقدم خيرا لنفسها بل تقدم شرا هكذا كان هذا الشر عليها وليس لها لأنها وإن حققت نفعا وقتيا فقد كسبت بذلك عذابا أبديا و العجيب أننا فى أمور الدنيا نحاول أن نعمل من أجل ما نعتقد أنه نفع قادم، فكل منا يرسل أولاده فى مرحلة طويلة إلى المدرسة ثم إلى الجامعة ويظل يسهر عليهم ويضنيهم فى المذاكرة ليحصلوا على درجة علمية ويعتقد أنها ستنفعهم فى المستقبل وربما قيد حركته وحركتهم أيضاً من أجل ذلك وأتى الإنسان نفسه مع يقينه أن حياته ستنتهى وأنه سينتقل إلى الحياة الآخرة نجده غافلا عن أن يعمل لآخرته ما عمله لدنياه وأن يطبق المنطق نفسه الذى يطبقه على حياته الدنيوية مع أن هناك فارقا كبيرا بين مستقبل سيحققه لسنوات معدودة وبين نعيم مقيم سيخلد فيه ولا يموت أبدا ولكنها الغفلة التى تصيب القلب البشرى وتجعله ينظر إلى ما هو عاجل وإلى ما تقدمه له الدنيا، وينسى ما هو قادم وهو لقاء الله فى الآخرة وتلك الغفلة التى تصيب القلوب سببها البعد عن منهج الله ولو أن كلا منا تمسك بمنهج الله لربح الدنيا والآخرة.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنفهم معنى مواكب الرسل من بداية الخلق حتى نهايته، ونكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يريد بهذا المثل أن يخبرنا بأنه أرسل أكثر من رسول ليزيح الغفلة عن قلوب الناس ويظهر ما أخفاه بعض الناس من منهج الله وما نسوه وما حرفوه، وأن مواكب

الرسل وجدت أمامها فى كل قرية أولئك المقاومين للإيمان المكذبين برسالات الله، وأن هؤلاء من الذين يخافون أن ينتزع دين جديد نفوذهم فى الدنيا وأن يجردهم من ميزات حصلوا عليها بالبغى والعدوان، وأنهم لما وجدوا الدين الجديد لا يوافق أهواءهم ولا يتمشى مع نزواتهم ولا يعطيهم السيادة؛ بدأوا فى حربه فقالوا: إن الله لم ينزل شيئاً وإن ذلك قول بشر ثم امتدوا بعد ذلك فى تكذيبهم للدين إلى محاولتهم إغراء الرسل بأن يتركوا الدعوة، فلما فشل الأعداء بدأوا هم بالعدوان والإيذاء، فكان عقاب الله عدلاً حيث إنهم هم الذين بدأوا.

الأمثال فى القرآن.. ومواكب الإيمان

مواكب الإيمان ضرب الله لها أكثر من مثل وأكثر من قصة فى القرآن الكريم كل تناول جانبا من جوانب الإيمان، ولا يمكننا أن نستعرضها جميعا فى فصل واحد بل هى ستأتى تباعا خلال الفصول القادمة.

على أننا نتعرض هنا إلى مواكب الإيمان فإننا سنتعرض للأمثال التى ضربها الله لمواكب الإيمان فى عهد الرسل والتى ضربها الله لمواكب الإيمان فى الفترات التى بين الرسالات وللمَثَل الذى أعطاه الله عن المؤمنين لأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

حينما نبدأ بمواكب الإيمان نكمل المَثَل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى سورة يــس: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾ [يس].

هنا مثل عن مواكب الإيمان فى عهد الرسُول، فالذين يؤمنون برسالة الرسل وبالدين لا يقفون عادة عند حد الإيمان بل يكونون دعاة له ويحاولون أن يجذبوا غيرهم إلى الهداية، وأن يجادلوا الكفار بالحجة عسى أن يؤمنوا بالدين أى إنهم لا يقفون من مواقف الكفر موقف المتفرج ولا هم يتركون الرسُول وحده يدعو بل هم موكب إيمانى مؤيد وداع لما جاء به الرسُول وهذا الموكب يعانى من أذى الكفار كما يعانى الرسول ويضطهد ويعذب.

على أننا نلاحظ هنا أن الله تعالى قد قال: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠].

ذلك أن مواكب الإيمان سواء كانت من الرسل أو من غير الرسل أو من أولئك الذين آمنوا بالدعوة وصدقوا بها دائما تسعى لعرض الإيمان على غير المؤمنين وشرحه لهم، تلك هى سمات المؤمنين.

فالإنسان المؤمن يريد دائما أن يجذب غيره إلى الإيمان أولا لأن فى قلبه حب الله وهذا الحب يجعله يريد أن يلفت الدنيا كلها إلى الإيمان بالخالق، وثانياً لأن فى قلبه الخير وما دام الخير فى قلبه فهو يريده للناس جميعا وهل هناك خير من الفوز العظيم الذى يفوز به الإنسان فى الآخرة إن المؤمن يعرف يقينا الجزاء و الحساب وما فى قلبه من خير يجعله

يريد للناس جميعا أن ينجوا من العذاب ويفوزوا بخير الدنيا والآخرة وحبه لله يجعله يريد الدنيا كلها أن تشاركه هذا الحب العظيم.

وفى هذا يلفتنا الله فى أكثر من مكان لهذا السلوك الإيمانى فيقول فى سورة الأعـراف: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

والحوار هنا بين موكب الإيمان وبين الكافرين، والكفار يعاتبون المؤمنين فى سعيهم الإيمانى ويوجهون إليهم اللوم ويقولون: «لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا» وكأنما يستكثر الكفار على المؤمنين محاولاتهم المستمرة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم ولكن هذه هى طبيعة موكب الإيمان.

أولاً حتى يحاسب الله المؤمنين يوم القيامة أنهم شهدوا مواكب الكفر بدون أن يعظوهم أو يذكروهم بالله.

وهذه التذكرة هى ثواب المؤمن حتى ولو لم يهتد الكافر وكأنما المؤمن يتصرف من منطلق إيمانى وبذلك تكون الرسالة قد بلغت على أيدى الرسل واستمرت بمواكب الإيمان حتى لا يأتى أحد يوم القيامة ويجادل الله فى أنه لم يعلم أو لم يبلغ، فإذا اهتدى الكفار كان هناك أجران أجر لبيان الطريق المستقيم واستمرار البلاغ عن الله لعباده عن طريق الموكب الإيمانى وأجر على من اهتدى من غير المؤمنين ودخل فى الإيمان، ثم يقول سبحانه وتعالى فى سورة الرعد: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]

أى إنه رغم علم المؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدى الناس جميعا ويخضعهم له، مع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يظلون مستمرين فى موكبهم الإيمانى عسى الله إن شاء أن يجعل الهداية على أيديهم ومهما بلغ الكفر فإن المؤمن لا ييأس أبدا بل يظل يدعو للمبدأ الإيمانى وهو الذى يسعى وهو الذى يحث الناس على اتباع منهج الرسل وعلى طاعة الله فهذا الموكب الإيمانى لا ينتهى أبدا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة»[1].

الله يريد فى هذا المثل أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر وأن المؤمنين يسعون دائما إلى تذكير غيرهم بمنهج الله وحثهم على اتباعه وهو يضرب لنا هذا المثل لأن الحياة قصيرة قد لا نستوعب ما يحدث فيها ولذلك يريد أن يفهمنا أن موكب الإيمان مستمر فى الدنيا دائما ثم يمضى المثل الذى ضربه الله: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ ﴾ [يس].

هنا يريد الله أن يلفتنا إلى حقيقتين هامتين فى موكب الإيمان و الرسالة.

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء [١٢٦٧] وعزاه لصاحب المقاصد الحسنة وقال: لا أعرفه ومعناه صحيح.

الحقيقة الأولى أن هؤلاء الناس يعيشون حياة شاقة فى اصطدامهم بمن يحاولون استغلال المجتمع الإنسانى فى الأرض وفى الوقت نفسه فإنهم لا يحصلون على أجر دنيوى فالرسل لا يطلبون أن يعيشوا فى قصور ولا يطلبون أن يعيشوا فى حياة الثراء والترف بل هم لا يحصلون على ميزات كثيرة يتمتع بها عباد الله غيرهم وهم مثلا لا يتركون ميراثا لأهلهم بل إنهم كل ما يتركونه يذهب للصدقة ولا يورث أهلهم شيئاً وهم فى الزكاة أو أموال الصدقات التى يجمعونها لا يعطون منها أقاربهم ولو كانوا من مستحقى الصدقة بل إننى أريد هنا أن أذكر آية كريمة نزلت فى المدينة المنورة عندما بدأت غزوات المسلمين وبدأت معها الغنائم التى حصل عليها المسلمون كانت هناك رغبة من زوجات الرسُول فى بعض الغنائم وكان هذا اتجاها إلى الدنيا وإذا بالقرآن ينزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا حددت هذه الآية الكريمة أن متاع الدنيا من فاخر ثياب ومال وغنائم وكل ما تقدمه الدنيا من زينة هو ليس لزوجات رسُول الله حتى لا يكون هناك مطمع دنيوى.

إذن.. فالرسول لا يطلب أجرا ممن آمن وإنما أجره من الله، وهو لم يطلب مالا ليبنى به قصورا ويحيط نفسه بمباهج العظمة، وهو لا يعطى أهله ولا أقاربه مالاً، أو فائدة باستغلال النفوذ إلى آخر ما يحدث بالنسبة للمناهج الدنيوية، كل هذا لا يتم بالنسبة للرسل، ولو تم لانحرف المنهج ولكان عند الناس عذر فى عدم الإيمان، لأنه يحقق فائدة دنيوية يسعى إليها غير المؤمن ولكن كون الرسالات هى مشقة يتحملها الرسُول بدون أن يطلب أجرا من أحد من المؤمنين أو يتميز عليهم أو يطالبهم بما لا يفعل، وبما لا يلتزم هو به، وما دام ملتزما التزاما بالمنهج وما دام لا يستفيد من هذا يكون ذلك أدعى لأن نتبعه.

ولنسأل أنفسنا إذا كان هذا الرجل لا يتلقى منهجا من السماء فما هى فائدته فى كل المشقات التى يتحملها وفى كل الأذى الذى يقع عليه فلو كان هناك عقل لكان هناك اتباع للرسول الذى جاء بمنهج السماء لا يبغى علوا فى الأرض ولا ثراء ولا نفوذا.

إذن.. فموكب الإيمان فى دعوته إنما يتخذ من الرسل قدوة ويقول للناس اتبعوا من لا يسألكم أجرا ولا يريد أن يأخذ من أموالكم ليزيد هو فى ماله ولا يحقق بواسطتكم جاها فى الدنيا وهو فى الوقت نفسه أكثركم التزاما بالمنهج الذى يدعو إليه لا ينهاكم ثم يفعل هو.

ثم يمضى موكب الإيمان بعد ذلك ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾. وهنا يأتى السؤال بقمة الحجة الإيمانية، وهو أى عذر لى أو حجة فى ألا أعبد الذى خلقنى، والذى سأعود إليه مرة أخرى ليحاسبنى ويجزينى أجر إيمانى وعملى، والحجة هنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وتلك حجة لا يستطيع أحد أن يجادل فيها، فالإنسان لم يخلق نفسه، ولم يقل أحد إلا الله إنه هو الخالق، ومن هنا فإن قضية الخلق محسومة لله

سبحانه وتعالى، لم يدعها غيره والذى أخبرنا عنها هو الله وحده؛ إذن.. ما هو أساس عدم العبادة ما دامت القضية محسومة وواضحة ولماذا المجادلة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. لا هذا ولا ذاك، ومع ذلك فإن الإنسان يبتعد عن هذه القضية محاولاً أن يجادل فيها بأكثر من جدال، وما دام الله هو الذى خلق والقضية محسومة، ألا يستطيع الخالق سبحانه وتعالى أن يعيد خلقه مرة أخرى، ويحشرهم إليه يوم القيامة.

إذا كنت أنا قد صنعت شيئا، أفلا أستطيع أن أعيد صناعته؟ بالعكس فى المرة الثانية تكون أسهل من المرة الأولى بالنسبة للإنسان على الأقل، فقد تحتاج فى المرة الأولى إلى ابتكار ولمسات، ولكنك فى المرة الثانية إذا قيل لك أعد صناعة الشىء نفسه تستطيع أن تعيده أسهل وأيسر، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده سهل ولا صعب، فإذا كانت قضية الخلق محسومة فكيف تكون قضية إعادة الخلق فيها جدل، بينما هى بالنسبة لقدراتنا نحن أسهل.

لكن الكفار الذين قد لا يجدون حجة فى المجادلة فى قضية الخلق؛ لأنها كما قلنا محسومة يجادلون فى قضية البعث، ولقد جاء رجل يقال له العاص بن وائل وأخذ عظمة قديمة من البطحاء وفركها بيديه حتى صارت ترابا، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل يحيى الله هذا بعد ما ترى؟ - أى بعد أن صارت ترابا - فقال رسول الله: «نعم يبعث الله هذا، ويميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم»[(١)].

ونزلت الآية الكريمة فى سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [يس].

إذن.. الذين يجادلون فى البعث، إنما حجتهم داحضة لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق أول مرة وهو يستطيع أن يعيد خلقه، أو أن يعيد ما خلقه مرة أخرى وذلك أسهل.

فموكب الإيمان عندما يأتى يذكر الناس بهذه الحقائق، وهى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم وهو قادر - ما دام قد خلق - على أن يعيدهم مرة أخرى، ولو أنهم فكروا قليلا لوصلوا إلى هذه الحقيقة، ولكن من نقائص العقل البشرى أنه يأتى إلى من هم دون الله ليتخذ منهم آلهة، ولو أن هذا العقل كان يفكر التفكير السليم، لما ترك الأعلى ليتخذ إلها ممن هم دونه، فلا يُقبل عقلاً ولا منطقاً أن أترك القوة التى ليس فوقها قوة، والقدرة التى ليس فوقها قدرة، وآتى إلى من هم أقل قدرة لأعبدهم، أو آتى لمخلوق مثلى لأتخذه إلها، ولكن الذى يحدث أن النفس البشرية لها شهوات، وهى تريد أن تنطلق بهذه الشهوات بدون أن يكون هناك قيود تحدها، والله سبحانه وتعالى قد خلقنا جميعا وجعل

---

(١) جزء من حديث رواه الحاكم فى المستدرك [٣٦٠٦/٧٤٣] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبى فى التلخيص: على شرط البخارى ومسلم.

لنا حقوقا متساوية، فإذا جاء هوى النفس يطلب ما هو حق للغير جاء عدل الله وقال: لا، وحينئذ يبحث هوى النفس عمن يبيح له ذلك فيخترع آلهة أو يتصور آلهة تبيح له شهوات نفسه، ومن هنا فهو يريد أن يشكل إلهه على هواه، فيتخذ أحجارا، أو أسماء، أو أشياء يسميها هو ولا وجود لها، ويضع لها هو المنهج الذى تمليه عليه نفسه، وفى هذه الحالة يكون الإنسان قد ألغى عقله وضاع عن الحق.

هنا يأتى القرآن ليرد على القضية من كل جوانبها، بعد أن بين عجز أى إله يتخذ من دون الله؛ لأن الله وحده هو الذى خلق وأوجد، وكل إله من دون الله لم يخلق شيئا، ولم يوجد شيئا يأتى بعد ذلك إلى حجتهم ويقول هب أنكم لا تؤمنون بالبعث، ولا بأنكم ستعودون مرة أخرى لتحاسبوا هب أن ذلك هو ما فى عقولكم، أفتتخذون آلهة من دون الله لماذا؟ للحياة الدنيا كما تقولون سنمضى معكم فى هذا، هؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم من دون الله ليدفعوا عنكم الضر ويحفظوكم فى الحياة الدنيا هل هم قادرون على ذلك؟ فيقول موكب الإيمان: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣].

أى: إن هؤلاء الذين اتخذتموهم فى الدنيا وحدها عاجزون حتى عن هذه المهمة، فهم إذا أرادنى الله بضر وهو خالقى ويجرى على قدره لا يستطيعون ولا يملكون دفع الضر عنى وحتى ما تدعونه من أنكم اتخذتم هذه الآلهة لتشفع لكم عند الله سبحانه وتعالى، فالله لا يقبل شفاعتها وبذلك فهى عاجزة تماما عن إنقاذى من ضر أرادنى الله به، أو التشفع لى عند الله ليذهب الضر عنى؛ إذن.. لا هى أفادتنى فى منع الضر، ولا كانت واسطة لينقذنى الله منه.

وهكذا جاء الرد على كل الجوانب، فإذا كان هناك إيمان بالدنيا والآخرة؛ فالله هو الذى خلقنى وهو قادر على أن يرجعنى ليحاسبنى؛ فلابد أن أؤدى له حق العبادة، وإذا كنت أريد الدنيا وحدها ولا أصدق بالآخرة، فحتى فى هذه الحالة فإن الآلهة التى اتخذتها من دون الله غير قادرة على توفير الحماية لى فى الحياة الدنيا، وإنقاذى من ضر أرادنى الله به؛ بل وأكثر من ذلك هى عاجزة على أن تشفع لى عند الله.

عندما تصل إلى هذه النتيجة نكون قد وصلنا إلى أن كل من يعبد غير الله هو فى ضلال مبين؛ أى ابتعد عن الطريق، وضل الوصول إلى غايته، فلا هو عمل للآخرة، ولا هو حقق لنفسه فى الدنيا ما يحميه من غضب الله إن أراد به سوءاً فكأنما خسر الاثنين معا؛ الدنيا والآخرة؛ ولذلك فإن الله وهو يضرب المثل بعد أن ساق الحجج يقول: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ ﴾ [يس].

الذى حدث أن موكب الكفر لم يجد لديه حجة فى أن يرد أو أن يقول شيئاً؛ ذلك أن كل الحجج التى جاءت كانت دامغة فلم يكن هناك إلا الإيذاء و القتل لأن الإنسان حين يفقد حجته يلجأ إلى العنف، فطالما هو يملك الحجة فيستطيع أن يجادل، ولا يلجأ إلى العنف أبدا ما دام قويا بحجته وبرهانه؛ إنما ذلك الذى يلجأ إلى العنف فهو ضعيف الحجة؛ ولذلك فإن مواكب الكفر تلجأ دائما إلى الإيذاء والعنف فى مواجهة مواكب الإيمان، وتحاربهم بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ما دام قد فقد المنطق وضاعت حجته، ولكن مصير أهل الإيمان دائما إلى الجنة يجزيهم ربهم على عملهم وعلى دعوتهم، ويبقى الخير فى قلوبهم حتى بعد إيذاء الكفار لهم؛ ذلك أنهم يحسون أن هؤلاء قد خسروا خسرانا مبينا، ويتمنون لو أنهم يصلون إلى حقيقة الإيمان وحقيقة الكون؛ لذلك يقول الرجل الصالح: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ ﴾ [يس].

وهنا لابد أن نلتفت إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وقوله تعالى على لسان المؤمنين الذين حاربوا مع داود ضد جالوت: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

ذلك أن الله يريد أن يعلمنا أن باب التوبة مفتوح دائماً وأن الإنسان المؤمن إذا صدق إيمانه وصدق عمله من أجل الله فإن الله يتجاوز عن سيئاته ويغفر له ذلك حتى نحس جميعا أن الذنب لا يقف عقبة أمام حسن الإيمان ما دام الإنسان قد ارتكبه بجهالة ثم تاب عنه توبة حقيقية ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ [يس: ٢٨].

والله هنا يريد بعد أن أخبرنا بموقف الإيمان وموقف الكافرين وكيف كذبوا الرسل أولا وبدأوا بالعداوة ثم وقفوا هذا الموقف المعادى أمام مواكب الإيمان التى جاءت تحثهم على اتباع المنهج يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن هؤلاء الكفار ليس لهم قيمة ولا قوة ولا قدرة وأنهم حتى لا يستحقون أن تنزل إليهم جند من السماء لتقضى عليهم، بل إن الله سبحانه وتعالى لم يكن منزل هذه الجند لأن هؤلاء لا يساوون شيئا وهو إن تركهم فى غيهم فى الدنيا فليس مرجع ذلك إلى أنه غير قادر عليهم، وليس مرجعه إلى أنهم معجزون فى الأرض أو يساوون شيئا أمام قدرة الله، بل مرجعه وأساسه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وأعطاه حرية الاختيار فى أن يؤمن أو لا يؤمن فإن الله سبحانه وتعالى وهذه مشيئته يترك الكافر يجادل ويكابر وينذره ويرسل إليه الرسل ومواكب الإيمان؛ لا لأنه لا يقدر عليه؛ ولكن لأنه تركه مختارا ويوم يأتى أجله أو ينتهى عمره فهو لا يساوى عند الله شيئاً ويستطيع أن يسلبه الحياة فى لحظة أو فى أقل من لحظة.

❁ ❁ ❁

الأمثال فى القرآن.. وأصحاب الكهف

الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا لموكب إيمانى آخر فى سورة الكهف وصورة الموكب الإيمانى هنا تختلف وهى تمثل عصرا انتشر فيه الكفر، قلة مؤمنة لا تدرى ماذا تفعل أمام بطش الكافرين وهنا يعطينا الله المثل ليكمل بذلك موكب من مواكب الإيمان.

وقبل أن نبدأ الحديث أحب أن أقول إن كل الأمثال التى تضرب فى القرآن قد أخفى الله سبحانه وتعالى حقيقة أبطالها لأنها تحدث وتتكرر فى كل عصر والخلاف الذى يحدث حول من هم أبطال هذا المثل أو هذه القصة أو فى أى عصر حدثت هو خلاف لا يفيد القضية فالمفروض بدلاً من أن يجرنا هذا الخلاف إلى متاهات أن نلتفت إلى الحكمة التى أرادها الله سبحانه وتعالى ونتدبر فيها فذلك هو المقصود وهو الأساس.

قصة أهل الكهف هى قصة فتية آمنوا بربهم؛ أى فتية؟ كل فتية آمنوا بربهم، قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝﴾ [الكهف].

هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى إنما هم يمثلون المنهج الإيمانى واستمراريته، والله قد ضرب لنا المثل فى أصحاب القرية فى منهج إيمانى يجادل ويواجه وهذا هو أساس المنهج الإيمانى، ولكن الله فى هذا المثل فى سورة أهل الكهف بأنهم لم يواجهوا ولم يستمروا بل هربوا بدينهم أو فروا بدينهم بعيدا عن الكفار فهل فى هذا تناقض؟ كيف يبقى الإنسان مرة يجادل ثم يفر بدينه مرة أخرى!

نقول لمن يدعى ذلك إنك لم تفهم الحكمة، فالحكمة فى المثلين واحدة وإن اختلف الأسلوب فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى المنهج الإيمانى مواجها الكافرين، مجادلا لهم حتى آخر لحظة، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد من المنهج الإيمانى إذا واجه قوة ستقضى عليه أن يستسلم ويتركها لتقضى عليه إنما عليه أن يفر بدينه إلى مكان آخر ثم بعد ذلك يعود مرة أخرى بعد أن يكون قد قوى واستطاع أن يواجه، يعود مرة أخرى قويا إلى المواجهة وهو لا يريد لمن يدعون لدينه أن يهربوا من المجتمع أو أن يعتزلوا بل لابد أن يبقوا وأن يقولوا كلمة الحق وأن تظل الدعوة مستمرة ولذلك إذا قرأنا قصة أهل الكهف بعناية نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد شرطين لا ثالث لهما ليفر الإنسان بدينه إلى

مكان آخر ويبدأ الدعوة من جديد، والشرطان هما: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

إذن.. فالأساس هو ما حدده القرآن الكريم فى هذه السورة فقد كان الفتية المؤمنون إذا بقوا فإنهم سيواجهون أحد أمرين: إما أن يرجموهم علنا أمام الناس ويقتلوهم على رؤوس الأشهاد وفى هذه الحالة ينتهى موكب الإيمان من هذه البلدة إلى فترة محدودة، وإما أن يجبروهم علنا على أن يعودوا إلى عبادة الأصنام وفى هذه الحالة ربما يكون هناك عدد من المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم فيشهدوا هؤلاء الفتية وقد ارتدوا عن الإيمان فيفتنون بهم ويرتدون هم أيضاً ويتوقف موكب الإيمان فى هذه البلدة إلى حين.

إذن.. فالأساس هنا هو استمرارية موكب الإيمان أو المحافظة على هذه الاستمرارية هذا بالنسبة لمن يدعون إلى تطبيق المنهج أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فالله يستطيع أن ينصر دينه وكلمته وهو ليس محتاجا إلى أحد وهذا ما سنبينه، إنما الأساس هو أن الهجرة أو الفرار بالدين لا يكون إلا لهذين السببين اللذين حددهما الله؛ وأن بقاء الدعاة فى المجتمع ما داموا غير مهددين بالقتل أو مهددين بأن يكرهوا علنا على الكفر أقول إن بقاءهم فى هذه الحالة واجب إيمانى وأنهم لابد أن يبقوا ويظلوا يؤدون واجبهم كدعاة للحق.

هؤلاء الفتية وجدوا أن بقاءهم فى المجتمع الكافر سيعرضهم لأحد شيئين: إما أن يقتلوا ويحرم المنهج ممن يدعون إليه، وفى هذه الحالة فإن قتلهم لا يفيد المنهج لأن المنهج محتاج لموكب إيمانى وإما أن يكرهوا على الكفر فيصبحوا فتنة للذين آمنوا ودعوة إلى الكفر والإلحاد وفى هذه الحالة أيضا يحرم المنهج الإيمانى من حاملين له ومؤمنين به ودعاة له وفى هذه الحالة لابد أن يفروا إلى مكان ليعودوا مرة أخرى وهم أكثر قوة.

وكانت أول مرحلة لهؤلاء الفتية هى أن يلتجئوا إلى الكهف حتى يتدبروا أمرهم؛ ولذلك فهم لم يذهبوا إلى الكهف ليبقوا هناك بقية حياتهم أو لكى يناموا أو لكى يعتزلوا المجتمع ويعيشوا هم فى مجتمعهم الخاص وإنما الكهف وسيلة للاختفاء نهارا؛ ربما ليكملوا رحلتهم ليلا أو وسيلة للاختفاء فترة قصيرة حتى يهاجروا من هذا البلد بعد أن تهدأ العيون التى تتبعهم، والتى تريد أن ترجمهم أو ترغمهم على الكفر، فلما دخلوا الكهف ألقى الله سبحانه وتعالى عليهم النوم، ولم يكن هذا مقصودا منهم، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذى أراده لحكمة، ولكن التجاءهم للكهف كان المقصود به منهم إبقاء الخميرة الإيمانية أو خميرة منهج الإيمان، ليذهبوا بها إلى مكان آخر يمكن أن تختمر فيه و تنتشر، لذلك لابد من المؤمن أن يحافظ على حياته، لأن حياته هى الخميرة لمنهج الإيمان، وحتى يظل المنهج الإيمانى، وفرارهم كان من أجل استبقاء حمل المنهج وليفروا إلى مكان ينشرون فيه الدعوة.

وتمضى الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

وهنا إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى الرحمة التى تصيب العبد المؤمن، والذى يضطهد بسبب إيمانه ودينه، والمعروف أن الكهف مكان ضيق لا يصلح للإقامة إلا فترة قصيرة، فهو عادة يكون سيئ التهوية وغير صالح للحياة، ولكن الله سبحانه وتعالى قد حفظ لهم الحياة فى هذا الكهف الضيق سنوات طويلة، وهذه إشارة إلى أن ذلك الذى يسلك مسلك الإيمان قد يجعل هذا المسلك حياته الدنيوية ضيقة صعبة، وقد يسلبه ميزات كثيرة من التى يتمتع بها الناس ويجعله يعانى، وهنا تأتى رحمة الله على عبده المؤمن، إذ يجعل الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الضيقة حياة ميسرة، ويذهب الضيق الذى أوجده الكفار فى حياة الإنسان المؤمن بأن ينشر الله من رحمته على هذه الحياة ما يجعل من الضيق فرجا، ومن العسر يسرا، ومن الحياة المحدودة جدا حياة واسعة، ويهيئ الله برحمته مخرجا بالنسبة للخطوات القادمة.

خرج الفتية إلى الكهف، وفى هذا المكان الضيق الذى - كما قلنا - لا يصلح للحياة لفترة طويلة جعل الله سبحانه وتعالى برحمته هذا المكان يصلح لحياتهم فترة طويلة تعد بمئات السنين إذ استجاب لهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

إذن.. فهم رفعوا الأمر من قدراتهم هم عندما فشلوا فى إقناع قومهم بعبادة الله وترك الأصنام التى يعبدونها، وعندما أحسوا بالتهديد بالرجم أو بالإكراه على الكفر، رفعوا الأمر إلى قدرات الله فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

والله يريد أن يلفتنا إلى أن الصلة التى تؤرق الإنسان فى نومه، أو تصله بالدنيا فى كل الأوقات هى الأذن، فكل الحواس تنام ماعدا الأذن؛ ذلك أنك إذا جئت إلى إنسان نائم وقربت أصبعك من عينيه حتى تكاد تلمسها، فإنه لا يحس ولا يستيقظ، وإذا وضعت يدك على يده قد لا يستيقظ إذا كان ينام نوما عميقا، وإذا أطلقت رائحة غريبة فى حجرة فلا يحس بها ولا يستيقظ، حتى ولو أطلقت غازا ساما فقد يستنشقه ويموت وهو نائم من دون أن يستيقظ.

ولكنك إذا أحدثت صوتاً عاليا بجانب أذنه باستخدام أية آلة تحدث صوتاً عالياً، أو باستخدام كفيك تصفق بهما بجانب أذنه، أو بالنداء عليه بصوت عال، فإنه يهب من نومه مذعورا، بل إن الأذن هى أول حاسة تعمل فى جسم الإنسان عند ولادته.

فالطفل حديث الولادة قد تمضى عليه عدة أيام قبل أن يستطيع أن يستخدم حاسة البصر استخداما سليما، ولكن حاسة السمع تعمل من أول لحظة، فيزعجه الصوت العالى، والأذن هى أداة الاستدعاء عند البعث.

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا كيف نام هؤلاء الفتية تلك السنوات الطويلة بدون أن يحسوا بأن ضرب الله على آذانهم، فأصبح النهار بلا ضجيج كالليل فى سكونه تماما، وحتى إذا وصل أعداؤهم إلى مدخل الكهف وتحدثوا بصوت عال، فإن ذلك لن يزعجهم ولن يجعلهم يحسون بالخطر؛ وربما تصرفوا تصرفا يكشفهم ويعرضهم لإيذاء الأعداء؛ ولذلك كان الضرب على آذانهم حتى يرقدوا فى سلام تام، تماما كما ينام الإنسان فى جوف الليل، حين تهدأ الحركة تماماً فلا يسمع صوتا واحدا.

ووفر الله لهم سبحانه وتعالى أسباب الحياة الكونية، فجعل الشمس تدخل إلى الكهف من دون أن تصيب أشعتها أجسادهم فتوقظهم حرارتها، وشاءت قدرته أن يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ليحفظ أجسادهم من أمراض الرقدة الطويلة، ومن أن تأكلها الأرض.

ثم جاءت الحكمة فى البعث بعد فترة طويلة من النوم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩].

من الواضح هنا أن الفتية المؤمنين قد فقدوا عنصر الزمن، وعندما أفاقوا من نومهم بعد هذه السنوات الطويلة، لم يكن هناك شىء فى الكهف قد تغير، وإن كان كل ما فى خارج الكهف قد تغير، ولكنهم لم يشعروا به، لأن عنصر الزمن لا يحس به الإنسان إلا بالمتغيرات؛ بمعنى أنك إذا جلست فى حجرة وأقفلت كل منافذها وجعلتها ظلاما ليس فيها أى حركة ولا أى أحداث تتم ولا صلة لك بالعالم الخارجى؛ فأنت لا ترى الشمس حين تشرق أو تغرب، وليس هناك ساعة تدلك على الزمن ولا من يأتيك، فإنك تفقد القدرة على الصلة بالزمن، فالزمن أساسه التغير الذى يتم، الشمس التى تشرق وتغرب، مظاهر الكون التى تتأثر بالزمن، القمر وحركة النجوم أى شىء أساسه الحركة، وما دام الفتية المؤمنون كانوا فى سكون تام نتيجة أن الله ضرب على آذانهم، وما داموا قد قاموا فوجدوا الكهف كما هو لم يتغير فيه شىء، فقد خيل لهم أن الزمن لم يتغير وأنهم قد لبثوا يوما أو بعض يوم، ومن هنا فقد كانوا على حذرهم وخوفهم من الكفار؛ ولذلك طلبوا من ذلك الذى يأتى إليهم بالطعام ألا يجعل أحدا يشعر بهم حتى لا يرجموهم أو يعيدوهم فى ملتهم وجعل الله الناس يعثرون عليهم فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

وكان العثور عليهم له أكثر من حكمة؛ فأولاً تحولت البلدة الكافرة التى كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد الله سبحانه وتعالى، فى هذه السنوات الطوال التى مرت تغير الحال تماما وانتهى موكب الكفر وزال من البلدة وانتشر موكب الإيمان، وكان فى ذلك

حكمة فى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الإيمان وأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه، وأن هذا الذى تبدل وتغير إنما تم وهم نائمون فى الكهف؛ وذلك حتى يعلموا أن قدرة الله فوق كل قدرة، وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم الله إلى اختيار طريق الإيمان فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم بالجنة ويريد أن يمتعهم بقدراته فى الآخرة، وليس ذلك لأن الله محتاج إلى خلقه لينشر دينه أو ليعلى كلمته، ولكنه غنى بقدراته عن ذلك كله وذلك حتى نعرف جميعاً أننا إذا أخذنا طريق الإيمان فإن ذلك يكون رحمة من الله بنا ورضا من الله عنا ولا يكون حاجة من الله إلينا.

وهكذا رأى الفتية المؤمنون وشهدوا موكب الإيمان وعرفوا أن هدى الله لهم كان من رحمته بهم ولم يكن عن حاجة منه لأحد.

وحكمة أخرى أنهم شهدوا بأنفسهم البعث ورأوا كيف أنامهم الله هذه السنوات الطويلة، فلم يحسوا إلا أنهم قد قضوا يوماً أو بعض يوم، وأن الله سبحانه وتعالى الذى بعثهم فى هذه الدنيا قادر على أن يبعثهم فى الآخرة، ويستيقنوا برؤيا اليقين بعد أن استيقنوا بإيمان اليقين بأن الساعة قادمة وبأن ما آمنوا به هو الحق ويعرفوا أنهم اختاروا طريق الحق وأنهم فازوا فوزا عظيما.

والحكمة الثالثة ليستيقن أهل القرية التى كانت على الكفر ثم بدلها الله إلى الإيمان ليستيقن هؤلاء الذين جاءوا ونشروا الإيمان بعد الكفر بالبعث وبالآخرة وبقدرة الله سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة ويتحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤيا يقينية شهدوها بأعينهم وذلك حتى يثبت إيمانهم، وجزاء لهم على أنهم جاءوا ليبدلوا دولة الكفر إلى دار إيمان وليعبدوا الله وحده بعد أن كان من قبلهم يعبدون الأوثان.